ملاحظات

* في بناء الحكاية، استفدت من عمل الكاتب الاسباني أنطونيو بويروباييخو «القصة المزدوجة للدكتور بالمي» وفي البداية كان مشروعي هو أن أعدّ نصّ باييخو ذاته للعرض المسرحي، ولكن سرعان ما عدلت عن الفكرة مؤثراً كتابة نصّ جديد حول قضيّتنا المحوريّة، قضيّة الصراع العربي الإسرائيلي.

* ولعلّ من المناسب أن نذكر هنا، أن إلهام المسرح الحقيقي لم يكن في يوم من الأيام الحكاية بحدّ ذاتها، وإنما المعالجة الجديدة التي تتيح للمتفرّج تأمّل شرطه التاريخيّ والوجوديّ. وحين كان الأثينيّون القدماء يتوافدون منذ الفجر حاملين سلال طعامهم وشرابهم إلى المدرّجات الحجريّة حيث تقام المسابقات المسرحيّة، لم يكونوا يأتون ليسمعوا حكايات جديدة، بل ليتأمّلوا شرطهم الحياتيّ والاجتماعيّ في ضوء المعالجات التي يقدّمها المسرحيّون العظام للحكايات المعروفة. كان الأثينيّون القدماء يعلمون أن أغاممنون ستقتله زوجه وعشيقها وأن أورست سيقتل أمه، وما كانت سيرورة الأحداث هي التي تثير فضولهم وانتباههم، وانما المعالجة التي يقدّمها إيسخيلوس أو يوريبيدوس لهذه الأحداث، والرؤية الفكريّة التي تطفو من عمل كلّ منهما. وبذلك كان

المسرح يتحوّل إلى مكان للحوار والتأمّل، إلى مكان للحرّية وازدهار الحياة المدنيّة. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن كل التجارب المسرحية العظيمة. هل كان الجمهور الأليزابيثي يتدافع إلى المسرح الشكسبيري لكي يعرف ما هي نهاية ماكبث أو ريتشارد الثالث أو أنطونيو؟... بالتأكيد لا.. فقصص هذه الوجوه التراجيديّة كانت معروفة ومتوفّرة في الكتب التاريخية المتداولة في ذلك العصر. لكنهم كانوا يتدافعون ليصغوا إلى الشعر، وليتأمّلوا واقعهم كما تشي به رؤى الكاتب وأفكاره.

لقد تعمّدت إيرادات هذه الملاحظة لأن عدداً من نقّادنا لم يفهموا جوهر المسرح. وهم يعتقدون خطأً أن العنصر الأساسي في النصّ، وفي العمل المسرحيّ كله هو الحكاية. ولذا فإنهم يمسخون المسرح وإلهامه الأصليّ إلى تلخيصات سقيمة للحكايات، ويمسخون عملهم إلى مطاردة عقيمة لتقصيّ أصل الحكاية.

لا.. ليس المسرح مكاناً للتشويق البوليسيّ. وهو لم يصبح كذلك إلا في فترة انحطاطه، مع ظهور الميلودراما والفودفيل وبقيّة ملاهي البورجوازيّة المنتصرة في أوائل القرن التاسع عشر. حين فقد المسرح إلهامه الحقيقيّ، وحين لم يعد مكاناً لتأمّل الشرط الإنساني وممارسة الحوار، اتّجه إلى قصّ الحكايات المسلّية، وعكف على تأليف الحبكات البارعة والخاوية معاً.

* في هذه المسرحيّة راويان وحكايتان. راوٍ إسرائيليّ وراوية فلسطينيّة. حكاية اسرائيليّة وحكاية فلسطينية. والحكايتان تتداخلان، وتتبادلان النموّ. وإنّي أحلم بأدائين متميّزين. أداء يميّز الحكاية الإسرائيلية، وآخر يميّز الحكاية الفلسطينية. وكلا

الأدائين ينبغي أن يكون جادّاً ورصيناً. وإني أحذّر هنا من أيّ ميل لتقديم الشخصيّات الإسرائيليّة بصورة مضحكة أو فجّة، كما أحذّر من المغالاة، أو من عجز الممثل عن ضبط عدائيّته للدور الذي يؤدّيه. إني أريد أداء واعياً ورصيناً. أما كيف يمكن تمييز الأداء في هذا المستوى، فإني أعتمد في ذلك على بحث المخرج والفرقة التي تقدّم العمل. ربما أسعفت تراتيل المزامير، أو أسفار الملوك، أو حتّى إيقاعيّة اللغة العبريّة في استلهام أسلوبيّة متميّزة في الأداء. لا أدري كيف يمكن أن يتدبّر المخرج هذا الأمر، ولكني أجده ضرورياً.

أما المستوى الفلسطينيّ فإني أتصوّر الأداء فيه مبنيّاً على البساطة، ونوع من الغنائية المضمرة. وهنا أرجو ألاّ يحدث أيّ خلط بين الغنائية والخطابيّة. لا مجال في هذه المسرحية للخطابة. بل إن أي اقتراب من الأداء الخطابيّ يخرب العمل، ويسطّحه.

* لا شك أن المخرج مع ممثّليه، والفنّيين العاملين معه، هو مبدع له رؤيته، وله هواجسه الخاصّة التشكيليّة والبصريّة. وأنا لا أميل أبداً إلى الحدّ من حريّة المخرج. فهي ضمانة جوهريّة لاكتمال النصّ المشروع في عرض مسرحيّ مبتكر، وقادر على إثارة الحوار. ولكني أتمنّى أن يفرد المخرج في رؤيته الخاصّة حيّزاً جوهريّاً للأفكار. أن يجتهد كي يكون النصّ واضحاً، وكي يجرّ المتفرّج إلى الإصغاء الهادىء. أنا أعرف أن المتفرّج لدينا نافد الصبر، هشّ الانتباه وأنه بحاجة إلى محرّضات قوية، وأحياناً مفتعلة، كي يتابع عرضاً مسرحيّاً. وهو لا يُلام في ذلك. لأن هناك أجهزة ومؤسّسات ضخمة

تشكل استجابته وذائقته على هذا النحو. ومع هذا ربما حان الوقت كي نجد أساليب وإيقاعات في الأداء تساعد المتفرّج على التركيز، وعلى الاهتمام بالحوار الذي يتتابع، وصولاً للمتمتّع بالإصغاء إلى الأفكار التي تُطرح.

* هذه المسرحية نصّ مفتوح. أي أنه قابل للزيادات والتعديلات التي تمليها التطوّرات التاريخية. إن الراوية الفلسطينية لاتختم قولها بل تتركه مُشرَعاً على أفق مفتوح. ولهذا فإن الاضافات والتغييرات التي تحقّق راهنيّة العرض ممكنة. ومن نافل القول أن مثل هذه الإضافات والتغييرات ينبغي أن تعمّق الرؤية العامّة للمسرحية، لا أن تهدمها أو تجعلها ملتبسة، وحتى الرواية الاسرائيلية ـ وإن كان بدرجة أقل ـ هي نصّ غير مكتمل، والنقاض فيها يحتمل المزيد من المحاججة والتوتّر. باختصار.. إني أنظر إلى هذا العمل كمقطع مجتزأ من تاريخ عنيف، مثقل بالاحتمالات والتحوّلات. وإن كل عرض لهذه المسرحية يجب أن يرتكز على وعي بالتاريخ وما يحمل من تغيّرات، بحيث يستفيد من البنية المفتوحة للنصّ كي يطرح القضيّة في سياق تحوّلاتها الراهنة. وهذا يرتب على المخرج بحثاً إبداعياً، لا في التكوين الفنيّ للعرض فحسب، وإنما في التاريخ وسيرورته أيضاً. إن الوعي التاريخي هنا يضاهي الإبداع الفنيّ أو هو شرط جوهريّ له.

* تهيمن على فضاء المسرح ـ وهذا تصوّر شخصيّ غير إلزامي ـ كتلة ثقيلة من السلالم المعدنيّة الصدئة، والتي تفضي إلى مكتب مائير. غرفة واسعة، عُلِّقت على جدرانها صور هرتزل وبن غوريون وبيغن، وخريطة لإسرائيل التوراتية. المكتب يوحي بالفخامة

والحداثة. له أبواب عديدة، وكلّها تحدث صريراً غريباً حين تُفتح وتُغلق. باب يفضي إلى غرفة داخلية حيث تتمّ الحفلات.. وباب يفضي إليغرفة انتظار. هذه الكتلة التي تؤلفها السلالم والمكتب تبدو وكأنها تدهم فضاء المسرح، وتسيطر عليه.

ما عدا ذلك، فإني أقترح تحديدات رمزيّة للأماكن التي تتعاقب فيها الأحداث. يمكن أن تتمّ هذه التحديدات بتعدّد المستويات وقطع أثاث قليلة لها طابع الاستعارة، أو بلوحات متحركة على هيئة سواتر يرمز كلّ منها لمكان. أو حتى للافتات مكتوبة. المهمّ أنه لا داعي على الإطلاق لخنف الفضاء بركام من الأمكنة الواقعيّة المتخمة بالأثاث. والحضور الرمزيّ للمكان يساعد على مرونة الحركة من جهة، كما يبرز فظاظة الكتلة الواقعية المؤلفة من متاهة السلالم والمكتب من جهة أخرى.

الإضاءة تلعب دوراً هاماً في تتابع الأحداث، وتغيير مواقعها.

ترتيلة الافتتاح

(في إضاءة خافتة، يتقدّم الدكتور أبراهام منوحين على الخشبة.)

الدكتور : هـذه مملكـة العصـاب والجنـون. الـرأس كلّه مـريض، والقلب بجملتـه سقيم. من أخمص القدم إلى الـرأس لا صحّة فيه. بل كلومٌ وحَبَطٌ وجراحٌ طريّة لم تعصب، ولم تُلينَّ بدهن.

(ينسحب الدكتور منوحين. بروق ودويّ انفجارات متتابعة. قوة إسرائيلية تنسف عدداً من البيوت العربية. مع الانفجار الأول تظهر الأمّ سارة بنحاس مفعمة الحماسة والهياج، يتبعها ويتحلق حولها مائير وإسحق وجدعون وموشي ودافيد.. الانفجارات متواصلة.)

الأمّ : كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرّيّة ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم.

مائير : وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تَسْتبقِ منها نسمة ما، بل تحرّمها تحريماً.

جدعون : أبسلهم إبسالاً.

موشي : اذبحهم ذبحاً.

الأمّ : ولا تعفُ عنهم. بل اقتل رجلاً وامرأة. طفلاً ورضيعاً. بقراً وغنماً جملاً وحماراً.

مائير : عليكم ألّا ترحموا حتى تدمّروا نهائياً ما يسمّى بالثقافة العربية، التي سوف نبني حضارتنا على أنقاضها.

(برق ودويّ انفجار أخير ومديد.. تنسحب المجموعة.)

سفر الأحزان اليومية

المقطع الأول

: (تظهر الفارعة وهي امرأة فلسطينية ذات حضور قويّ.. تحمل لفّة طفل رضيع، وكيساً مما توضع فيه حاجيات الأطفال.)

الفارعة : هم يذبحون ونحن نتوالد. هم ينسفون ونحن ننهض من بين الأنقاض. ما عدنا نولول. وأنا التي كنت نائحة في المآتم أقلعت عن النواح. هذا العالم الأنانيّ لا يبالي بالضحايا، ولا يميّز العدالة إلا إذا كانت مقاتلة جسوراً. لا.. ما عدنا نولول.. والحقّ لا يضيع ما دام وراءه مطالب.

(تدلف إلى غرفة دلال، والإضاءة تتبعها. غرفة فقيرة لكنها نظيفة ودافئة. دلال شابّة وجميلة.)

دلال : ماذا تحملين؟..

الفارعة : اصطحبت معي ضيفاً ساحراً. انظري كم هو جميل!

دلال : من هو؟

الفارعة : طفل يبدأ حياته بلا مأوى.

دلال : وأهله؟

الفارعة : أدخلوا أمّه إلى المستشفى. تداعى قلبها حين رأت منزلها يتهاوى. وزّعنا الذين نسفت بيوتهم على أهل الحيّ، وأبقيت هذا الصغير كي نعتني به معاً.

دلال : وأبوه؟

الفارعة : إنه حيث يجب أن يكون.

دلال : وهذا الطفل البريء يدفع الثمن

الفارعة : الثمن مقرّر قبل أن يولد. وكما يقولون، من ليس له وطن، ليس له في الأرض مقام.

دلال : ضاع الوطن، وأخشى أننا نضيّع القليل الذي بقي لنا.

الفارعة : إذا ضاع الغالي لا يؤسف على الرخيص يا ابنتي.

دلال : كم بيتاً نسفوا؟

الفارعة : ستة بيوت.

دلال : ومنذ يومين خمسة. هل يأتي دوري؟

الفارعة : العراء أفضل من السكن في بيوت الذلّ.

دلال : ولكن ما نهاية هذا كله؟

الفارعة : أن يكون لهذا الأمير وطن وقليل من العدل.

دلال : إنك تحلمين يا خالة.

الفارعة : في حالتنا، الاستسلام أو اليأس كلاهما يعني الفناء. ونحن لا نريد أن نفنى.. في عروقنا حياة لن يستطيعوا قهرها.

دلال : لو أن لي إيمانك وقوّتك.! ماذا نفعل؟ هل نطعمه؟

الفارعة : دعي الأمير نائماً. حين يستيقظ سنغيّر له ونطعمه. في الكيس حليب وحفاضات وكلّ ما يحتاجه.

دلال : كل صباح كنت أحسّ أني متخمّرة وناضجة. وقبل أن يعتقلوه بيومين تحدّثنا عن طفلنا الأول. سمّيته زاهر،

وسماه جهاد. كنت متيقّنة أن في بطني بذرة تتكوّن. ولكن لم يكن هناك إلّا الفراق.

الفارعة : لا تتحدّثي عن الفراق. سيعود، وستتعبين من الإنجاب.

دلال : هل سألت اليوم عن أخباره؟

الفارعة : وحياتك سألت. ما زالوا في فرع التحقيق. لو نقلوهم إلى السجن لعرفنا وفوراً.

دلال : على صدري حجر ثقيل. يحدّثني قلبي أن اسماعيل ليس بخير.

الفارعة : دعيك من الوساوس. أنا أعرف زوجك كما أعرف أولادي. إنه صخرة، والإسرائيليون لن يغنموا شيئاً من مناطحة الصخر.

دلال : وهذا ما يزيد خوفي. لن يحتملوا كبرياءه وعناده.

الفارعة : هل كنت تفضّلين زوجاً يبول في سرواله!

دلال : لا أدري ماذا أفضّل. كل ما أريده هو أن يعود. لو تعرفين كم أشعر بالوحشة والخوف في غيابه. . . لم يمض على زواجنا إلا ثلاثة أشهر. وحين ضمّتنا هذه الغرفة في ليتنا الأولى أحسست أني أضعف من أن أتحمّل سعادتي. لم تهمّني معارضة أهلي، ولا لغط الناس حولي. كنت أفكر فقط في الأيامِ البهيّة التي سنحياها معاً. هو وأنا وهذا العشّ. لم يخبرني شيئاً. ولم أعرف أن له حياة سرّية هي الأغلى، وهي الأهمّ.

الفارعة : أراد ألا يفزعك، أو ينغص فرحتك. لقد تردّد طويلاً قبل أن يعزم على الزواج.

دلال : نعم. . تردّد طويلاً، وكدت أيأس. كان عليّ أن أواجه أهلي، ولغط الناس، وفوق ذلك تردّده. أحياناً كنت أشكّ في حبّه، فأشعر أن أهلي محقّون وأني رخيصة.

الفارعة : وكان يتنهّد وهو يتحدّث عن حبّه. يحكي لي عن فتاةٍ أهلها من أعيان الضفّة، ويرفضون مصاهرة معلّم متواضع الأصل والمال. وفي حديثه كان يخلطها بالأرض والمطر والزيتون، ثم يغمغم. . إنها أغلى من أن أورّطها ببؤسي ومخاطري.

دلال : عارضت أهلي، ورضيت خصامهم. وحين ضمّنا هذا العش حسبت أن المستقبل صار ملكي. بدأت أرسم أياماً ملوّنة، وسعادة لا تنضب. ولم يقل لي شيئاً.

الفارعة : ما كان يستطيع أن يقول.

دلال : أو ما كان يبالي. تصرّف وكأن زواجنا حدث عابر في حياته. كان الجوهريّ بالنسبة له هو عمله السرّيّ الذي واصله بعيداً عني. لم يراعِ حبنا، ولم يحسب له أيّ حساب.

الفارعة : لا تظلميه يا ابنتي. كادت عزيمته أن تضعف من شدّة الحرص عليك. كنت خفقة الضوء في حياته، وكان صوته يرتعش كلما أوصاني بك.

دلال : ومع هذا لم تكفه سعادتنا.

الفارعة : لا أحد يستطيع أن ينجو بسعادته في هذه الظروف.

دلال : كنّا سعداء يا خالة. الليالي أعراس، والصباحات أحلام ولهو. لقد خاطر بالسعادة الملموسة من أجل حلم غامض كالسراب.

الفارعة : ربما حمتك براءتك من رؤية ما حولك. ولكن في ليالي العناق، ألم تلاحظي أن وجه إسماعيل كان يشحب أحياناً؟ وأحياناً كان يدق قلبه بعنف. وربما فكّ عناقه، وهمس سأرتاح قليلاً.

دلال : هل كان يروى لك هذه التفاصيل؟..

الفارعة : لا.. كان أعفّ من الخوض في هذه التفاصيل. ولكني أعرف إسماعيل. وأعرف أن الواقع كان يطارده حتّى في الفراش. يشحب وجهه حين يرى المداهمات. ويدقّ قلبه حين يتناهى وقع أقدام الدوريّة، ويشعر بالتعب حين يسمع الغارات تدكُّ القواعد والمدن، كان يرى ما لا ترين وكان يعلم أن عناقكما محاصَر.

دلال : أكان هذا القلق كلّه يشاطرنا الفراش؟

الفارعة : تلك هي الحقيقة يا دلال.

دلال : ولكنْ حولنا آلاف يواصلون حياتهم، ويعيشون بأمان.

الفارعة : أنه أمان كاذب. لم يغتصبوا بلادنا لكي يوفّروا لنا الأمان. إنهم يريدون الأرض وخدماً تخلّوا عن هويّتهم، وقبلوا العمل بلقمتهم. لا.. ليس الأمان أن نبقى على قيد الحياة. بل الأمان هو أن نحيا أحراراً في وطن حرّ. أتعرفين من علّمني هذا الكلام؟ إنه زوجك ورفاقه. وربما حان الوقت كي تتعلّمي مثلي.

دلال : لم يطلب منّي شيئاً. ونادراً ما ناقشنا هذه القضايا.

الفارعة : لقد بالغ في الإشفاق عليك. رآك تصنعين من عواطفك وبراءتك قفصاً تقيمين داخله، فلم يشأ أن يصدمك. ولكن حان الوقت كي نخرج من القفص ونتعلّم. لن يخفّف شقاءك إلّا الكفاح ضد شقائنا جميعاً.

دلال : أتطلبين مني الانضمام إليكم؟

الفارعة : ليس هناك مخرج آخر.

دلال : لا أظن أن لديّ قوتك أو إيمانك. تصوّرت حياتي على نحو آخر.

الفارعة : لا ينقصك الإيمان ولا القوّة. لكن الأوهام التي غزلت حياتك منها تقيّدك (يبدأ الطفل بالصراخ) وتشوّش أفكارك.. استيقظ الأمير. لنسخّن الماء. ابقي أنت إلى جواره.

(تأخذ الفارعة الكيس وتخرج إلى مطبخ داخلي. تقترب دلال من الصغير. تحمله بحذر وتبدأ بمناغاته.)

دلال : ما اسمه يا خالة؟

الفارعة : (من الداخل) اسمه وعد.

(تنصرف دلال إلى مناغاة الطفل. فجأة يطرق الباب بعنف.)

دلال : تعالي يا خالة. لا أدري من يدقّ الباب.

(تهرع الفارعة إلى الباب، ومعها أنبوب حليب ورضّاعه.)

الفارعة : من؟

جدعون : (من الخارج) افتحوا.. أمن إسرائيلي.

دلال : ماذا نفعل يا خالة؟

الفارعة : تماسكي ولا تقولي شيئاً.

جدعون : (من الخارج) افتحوا وإلّا حطّمنا الباب.

تفتح الفارعة الباب بهدوء. يقتحم الغرفة جدعون وموشي ودافيد، هم يشهرون أسلحتهم.)

الفارعة : على مهلكم... أفزعتم الطفل.

جدعون : أهذا بيت إسماعيل الصفدي؟..

الفارعة : نعم.

جدعون : (نحو دلال) هل أنت زوجته؟

الفارعة : **(تتناول منها الطفل، وتقف أمامها في وضع حماية) ماذا تريد منها؟**

جدعون : هل أنت زوجة إسماعيل الصفدي؟

دلال : نعم.

جدعون : (إلى موشي) خذها.

الفارعة : إلى أين؟

جدعون : ليس شغلك.

الفارعة : خذوني بدلاً منها.

موشي : (يزيح الفارعة بعنف، ويمسك دلال) ابتعدي.. نريد زوجته.

الفارعة : لا تدفع.. كسر الله يدك.

جدعون : اخرسي.. من أنت؟

الفارعة : أنا فلسطينية. يناديني الناس الفارعة. زوجي الأول مات مسلولاً..

جدعون : خلاص.. خلاص. عرب نجاسة. ومن هذا الطفل؟

الفارعة : أتريدون اعتقاله؟

جدعون : تأدّبي وأجيبي.. أهو ابنها؟

الفارعة : لا.. إنه ابني. هل تريدون اعتقاله؟

جدعون : سيأتي وقته... يا الله..

(موشي ودافيد يجرّان دلال، ويتّجهان نحو الباب.)

دلال : إني خائفة يا خالة.

الفارعة : لا تخافي يا دلال. إنّك أقوى منهم.

دلال : أخبري أهلي.

الفارعة : سأخبرهم. ارفعي رأسك، وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم. إني أنتظرك هنا. كلّنا ننتظرك هنا. كم خاف عليك.. وكم حاذر أن يوقظك. ولكن اليقظة الآن ستكون خشنة ومرعبة. أمدّك الله بالقوة والحكمة. وأنت يا أميري. لا.. لم أنسك. من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه.. يا الله.. ها هو الحليب. هل تستطيع أن تعي حكاياتك منذ الآن؟ إذن اسمع. هذه هي حكايتك. الدجاجة لها بيت. بيت الدجاجة اسمه القنّ. الأرنب له بيت. بيت الأرنب اسمه الحجر. العصفور له بيت. بيت العصفور اسمه العشّ.

(تبدأ الاضاءة بالخفوت والصوت بالتلاشي.)

الفلسطينيّ لا بيت له. والخيام والبيوت التي يحيا فيها، ليست بيت الفلسطينيّ. بيت الفلسطينيّ يحيا فيه عدوّ الفلسطيني. من هو عدوّ الفلسطيني(*)؟

(*) من قصة «البيت» لزكريا تامر.

سفر النبوءات

المقطع الأول

(ضوء على الدكتور أبراهام منوحين. إنه في مكان يشبه الحديقة).

الدكتور : من يفرِّج عني وجعي، فإن قلبي فيَّ كئيب. آه يا مملكة العصاب والجنون. أبناؤك ينزفون وليس من يسعفهم، لأن الطبيب نفسه سقيم ويحتاج من يداويه.

(تدخل راحيل بنحاس زوجة إسحق بنحاس، حاملة زهوراً وكيس تسوّق. إنها شابّة جميلة.)

الدكتور : ينبغي أن أذيع ما لديّ، لا لأضيف جديداً إلى علم الأمراض النفسيّة، ولكن لأن السكوت قد يعني التواطؤ. إني طبيب عجز عن إسعاف مريضه لأنه لم يستطع أن يتغلّب على نفوره وإعيائه الداخليّ. في حياتي المهنيّة كطبيب للأمراض النفسيّة مرّت عليّ حالات كثيرة أشعرتني بالأسى أو الامتعاض. لكن تلك أول مرة أشعر بهذا النفور الذي يصاحبه إعياء كئيب. أيمكن أن نسمّي ذلك خيانة مهنية؟ ربما. . . ومن موقعهم هو بالتأكيد خيانة. ولكن في هذا التاريخ المثقل بالأكاذيب أليس للخيانة وكلّ النعوت الأخرى معنىً مزدوج. . ألم يقولوا لإرميا لا تتنبّأ لكي لا تموت بأيدينا. . ولكن مَن الإنسان

الحكيم فيفهم هذا. ! إن مريضي رجل عاديّ يسكن على مقربة من عيادتي. أعرف زوجته جيّداً.

راحيل : (وقد أصبحت إلى جوار الدكتور) منذ سنتين عالجني من أزمة عصبية حادّة.

الدكتور : كانت تصيبها نوبات من الاندفاع يعقبها همود كئيب. فقدت خطيبها في إحدى نزهاتنا الحربيّة، فانكفأت على حزنها والعناية بوالدها المريض.

راحيل : وحين مات والدي وجدت نفسي أغرق في الكآبة والمرض.

الدكتور : بعد عدد من الجلسات تحسّنتْ.

راحيل : بعد عدد من الجلسات تحسّنتُ وتعلقتُ به.

الدكتور : هذا يحدث أحياناً.

راحيل : صدّني ببرود وصرامة.

الدكتور : كان ذلك ضرورياً.

راحيل : ذات يوم كنت أجلس في هذه الحديقة. لاحظ إسحق أني أبكي، فاقترب مني. كان رجلاً مجرّباً يوحي بالأمن والثقة. قال لي سأشفيك يا مريضتي الصغيرة، وبعد أيام تزوجنا.

الدكتور : انقطعتْ عن العيادة، وبدا لي أنها شفيت تماماً.

راحيل : صرت أتحاشى الدكتور، وأرتبك حين ألتقي به.

الدكتور : ذلك اليوم، كانت عائدة من السوق. حيّتني وقالت. .

راحيل : أحياناً أحنّ إلى هدوء العيادة، ومقعدها المريح.

الدكتور : أتحنّين إلى المرض؟

راحيل : بل إلى التعاطف والـ . . ألا تريد واحدة من زهوري؟

الدكتور : إنها أبهى وهي في يدك. أهناك متاعب عائلية؟

راحيل : لا . . إن زوجي رائع . . وقد عشنا أوقاتاً حلوة.

الدكتور : والآن؟ . .

راحيل : لدينا طفلٌ رائع أتمنّى أن تراه.

الدكتور : لو تشرّفت بمعرفة زوجك لزرتكم.

راحيل : سأعرّفك به. إنه دائماً مشغول.

الدكتور : مع وجود الصغير لا أخشى عليك من الوحدة.

راحيل : ولكن حماتي . . لن أصدِّع رأسك بالسخافات. هل أستطيع أن أدعوك للعشاء ذات يوم؟

الدكتور : هذا لطف بالغ.

راحيل : سأتلفن لك قريباً.

الدكتور : اتفقنا.

راحيل : إلى اللقاء إذن.

الدكتور : إلى اللقاء.

(تمضي راحيل، ويبقى الدكتور منوحين).

الدكتور : بدت قلقة، وكأنها تريد أن تفضي بشيء ما. خشيت أن تعاودها نوبات الاندفاع التي يعقبها همود كئيبْ. كان لديها طفل عمره أشهر قليلة. وكانت حماتها امرأة مليحة ومتكبّرة. القلب أخدعُ كل شيء وأخبثُه، فمن يعرفه؟!

(ينسحب الدكتور منوحين).

سفر النبوءات

المقطع الثاني

(غرفة الجلوس في بيت إسحق بنحاس، تظهر الأم وهي تهدهد طفلاً في المهد).

الأم : شطّفنا الحبّوب وحفّضناه. صرت تعرف جدّتك . . آ . . ماذا تريد؟ أبوك أيضاً كان يضحك حين يريد شيئاً من أمّه. أغنية أم حكاية . . هل نكمل حكاية داود الجميل؟ أنت تفهم ما أحكيه لك. أعرف . . أعرف أنك تفهم . . ونظر جوليات داود فاستخفّ به لأنه كان غلاماً أشقر جميل المنظر. وقال جوليات لداود هلمّ فاجعل لحمك لطير السماء ووحش القفر. وكان لما نهض جوليات وازدلف لملاقاة داود، أن داود مدّ يده إلى الكتف وأخذ منه حجراً وقذف بالمقلاع فأصاب جوليات وانغرز الحجر في جبهته فسقط على وجهه. ولم يكن في يد داود سيف. فركض داود ووقف على الفلسطيني. (تدخل راحيل) وأخذ سيفه، وقطع به رأسه.

راحيل : ترفّقي بالطفل يا أمّاه. أذناه الغضّتان لا تتحمّلان هذه العبارات.

الأم : إنها قصّة سميِّه داود.

راحيل : ستسمعها كثيراً حين يكبر.

الأم : يجب أن يحفظها قبل أن يعيها. لقد أحسنت تربية ابني، وسأحسن تربية حفيدي.

راحيل : طيّب.. طيّب، حملت لك بطاريّات للراديو.

الأم : شكراً.

راحيل : (تنحني على المهد) وبنّوتتي الحلوة كيف مزاجها. فرحانة لأن ماما عادت!

الأم : (بجفاف) لا أحبّ أن تؤنِّثيه.

راحيل : أترى كم تحرص الجدّة على ذكورتك؟ أرني أشياءك الصغيرة إذن. لا شكّ أنّها مبلّلة.

الأم : غيَّرت له منذ قليل.

راحيل : لا تترك لنا الجدّة ما نفعله. هل تلفن إسحق؟

الأم : لا.. لم يتلفن. ولكن جاءتك رسالة.

راحيلة : رسالة.!

الأم : إنها على الطاولة.

راحيل : (تتناول الرسالة) غريب.. إنها من عمتي الثي تعيش في أمريكا. منذ وفاة أبي لم تكتب لي.

الأم : خير لها أن تأتي وتعيش في وطنها بدلاً من الثرثرة عبر الرسائل. كم أزدري هؤلاء الذين يعتقدون أن الوطن يكفيه لغو الرسائل وبعض المال.. (وأوأة الطفل) أعرف.. أعرف أن وقت الحليب حان.

راحيل : سأذهب لإعداده.

الأم : اقرأي رسالتك بهدوء (تهمّ بالذهاب، ثم تتوقف فجأة) متى تنتهي إجازتك؟..

راحيل : تعرفين أن إجازتي مفتوحة.

الأم : ألا تفكّرين في العودة إلى المدرسة؟

راحيل : هل تريدين التخلّص مني؟..

الأم : أشعر أن العودة للعمل ستفيدك. إنك تقريباً لا تخرجين.

راحيل : إني مبسوطة في البيت.

الأم : وإسحق؟ هل هو مبسوط؟

راحيل : لماذا تسألين؟

الأم : أراه معظم الوقت متجهّماً.

راحيل : لا شيء. إنه متعب قليلاً. يبدو أن العمل كثير هذه الأيام.

الأم : هل يتذمّر من العمل؟

راحيل : لا.. إنه متعب فقط.

الأم : عليه ألا يتذمّر من عمله. وعليك أن تزيلي تعبه.

راحيل : إنه لا يتحدث أبداً عن عمله. لا تقلقي.. إنه بخير.

الأم : سأذهب لتحضير الحليب.

(تنصرف راحيل إلى قراءة الرسالة. يدخل إسحق. تخفي الرسالة، وتخفّ لملاقاته.)

إسحق : مرحبا يا عصفورتي.

(تحتضنه راحيل بعنف. يمسح على ظهرها بضيق وحرج.)

راحيل : إني سعيدة لأنك جئت.

إسحق : ما بك؟

راحيل : لا شيء. مشتاقة لك. هل تبقى الليلة معنا؟
إسحق : إلا إذا استدعوني.
راحيل : عظيم. سأحضر لك الحلوى التي تحبّها.
إسحق : والمحبوب كيف حاله؟..
راحيل : رائق جداً. انظر كيف يبتسم.
إسحق : هل تبتسم لبابا.. تريد أن ألاعبك.. تعال..
راحيل : حين دخلت كانت ماما تسألني عنك. لا يفوتها شيء.
إسحق : تعرفين تعلّقها بي (تدخل الأمّ ومعهاالرضّاعة) أهلاً ماما.
الأم : أهلاً يا بني.
راحيل : أماه.. سيتعشى إسحق معنا.
الأم : فعلاً.!
إسحق : إني اليوم محظوظ. العشاء تطهوه أمي. والحلوى تعدّها زوجتي.. من مثلي.. وفي الانتظار سأعزف على الكمان مسرَّتي.

الأم : (بامتعاض) هذا الكمان.! (تتردّد لحظات، ثم تخرج.)
إسحق : منذ زمن طويل لم أعزف عليه. نفسي مترعة بالبهجة، وأريد أن أحتفل.
راحيل : أتريد حقّاً أن تحتفل ؟
إسحق : ولِمَ لا.. انظري.. إن دافيد يهزّ يديه وكأنه يرقص. أتحتفل أنت أيضاً.!
راحيل : هل تشعر بالبهجة فعلاً؟
إسحق : لا أدري.
راحيل : ألم تقل ذلك؟

إسحق : أحاول أن أبدّد شكوكها. ولعلّي أقنع نفسي.
(تدخل الأم حاملة خفاً منزلياً. تضعه أمام إسحق).
الأم : إخلع حذاءك ما دمت ستبقى.
(يطيع إسحق أمه مثل طفل. يخرج مسدساً يتمنطق به، ويضعه على الطاولة، ثم ينحني ويخلع حذاءه. الأم تحدّق فيه.)
الأم : وجهك شاحب. هل تشعر بالإرهاق؟
(الطفل يصرخ)
إسحق : أبداً.. إن حالتي ممتازة.
الأم : (تهدهد الطفل) لا تغضب يا ملكي.. شغلني أبوك قليلاً.. تعالَ نشرب حليبنا بهدوء (تدفع المهد، وتخرج به، وهي ترتّل) تقلّد سيفك على فخذك. وبجلالك اقتحم. شعوب تحتك يسقطون. اسمعي يا بنت وانظري. انسي شعبك وبيت أبيك. الملك يشتهي حسنك، فاسجدي له.
إسحق : ماذا تنشد؟..
راحيل : مزاميرها المعتادة. ما أقسى حبّها.! تودّ لو تستأثر بكما دوني.
إسحق : أرجو أن تتحمّليها.
راحيل : لا.. لا تظن أنّي أشكو، إننا نتفاهم ونمرح معاً.
إسحق : ماذا كنت تقرأين حين دخلت؟
راحيل : إنها رسالة من عمّتي. كتبت ترجوني زيارتها. يبدو أنها تعاني من الوحشة والخوف.
(تتمسّح به راحيل، وتداعبه. يبدو إسحق محرجاً.)
إسحق : وما رأيك؟ أيمكن أن تلبّي الدعوة؟

راحيل : وأتركك أنت ودافيد. ! طبعاً لا. إني لا أكاد أعرفها. ومنذ وفاة أبي لم تكتب لي. ألا تقبلني؟

(يضمّها إسحق، ويقبّل عنقها بارتباك.)

راحيل : آه.. كم اشتقت إليك..

إسحق : أشعر بالخجل.

راحيل : لا تقل ذلك. ضمّني واسكت.

(يحاول التملّص من عناقها.)

إسحق : هذا يحرجني، انظري.. بدأت أتعرّق.

راحيل : **أفسدك** الدلال.

إسحق : بحقّ الرب لا تسخري مني.

راحيل : (بحنان) إنك تهوِّل الأمر. لماذا لا تقاسمني متاعبك. إنك لا تحدّثني أبداً عن عملك.

إسحق : ليست لدي متاعب. وعملي هو عملي. لم يتغيّر شيء.

راحيل : ولكننا لا نكاد نراك.

إسحق : هذه الفترة لدينا عمل كثير.

راحيل : أترى. ! إنه إرهاق العمل إذن.

إسحق : مرت أوقات كنت فيها أكثر إرهاقاً، ومع هذا لم يحدث أنّي **عجزت**. هذا غير مفهوم.

راحيل : (وهي تعانقه) اتفقنا ألاّ ننزعج، وألاّ نستسلم.

(يتملّص إسحق من عناقها، فتبتعد عنه متجهّمة وكسيرة.)

إسحق : أرجو أن تفهمي ضيقي.

راحيل : كنت أحاول التعبير عن حناني.

إسحق : راحيل.. تعرفين أني أحبك. بل إنني الآن.. أشعر أني

متعلّق بك أكثر من أي وقت مضى.. ولكن.. كيف أقول ذلك.. الإلحاح يزيد إحساسي بالحرج.

راحيل : لا تخطىء فهمي.. إني لا أطلب شيئاً. والمسألة كلّها عابرة.

إسحق : وإذا لم تكن عابرة.. لن تتحمّلي ذلك.

راحيل : (تعانقه) أنا... زوجتك.

إسحق : (يتملّص منها) لا أطيق هذا العذاب.

راحيل : ما رأيك باستشارة الدكتور منوحين؟

إسحق : لا ينقصني إلا ذلك. سأغدو أضحوكة المكتب إذا علموا.

راحيل : إنه طبيب.

إسحق : ولكنك تعرفين ماذا يعني طبيب الأمراض النفسية. ! وماذا يفعل هؤلاء الأطباء؟ إنهم يزيدون الناس ارتباكاً.

راحيل : أخبرتك أنه أفادني كثيراً.

إسحق : ما أفادك هو الزواج لا الطبيب.

راحيل : اليوم التقيت به، وتمنّى أن يتعرف عليك. تأكد أن بوسعنا الاعتياد عليه. يمكن أن نذهب معاً إذا شئت.

إسحق : سيكون ذلك مخجلاً. لا.. لا أستطيع.

راحيل : (يائسة) كما تشاء..

(تأتي الأم وهي تحمل كوباً فيه دواء فوّار)

الأم : اشرب.

إسحق : ما هذا؟..

الأم : دواء للبرد.

إسحق : قلت لك

الأم : اشرب فوجهك شاحب (يذعن إسحق مثل طفل، ويشرب الدواء) لن يأكل الحلوى إذا لم تهزي خصرك.

راحيل : إني ذاهبة.

(تخرج المرأتان. يبقى إسحق وحده. يبدو عليه الإنهاك والقلق. يقترب من التليفون متردداً. يبحث في الدليل بعصبية. يرفع سماعة الهاتف، وهو يتلفّت حوله حذراً. يركّب الرقم.)

إسحق : آلو.. عيادة الدكتور منوحين.. أريد موعداً.. اسمعي يا آنسة إني مشغول جداً ولا أستطيع المجيء إلا اليوم.. اعتبريها حالة عاجلة.. لا.. لا يزعجني الانتظار في العيادة.. الساعة الخامسة.. اتفقنا.. بنحاس.. الاسم بنحاس.. شكراً... إلى اللقاء.

(يضع السماعة وعلى وجهه ارتياح. يغادر الصالون إلى غرفة أخرى. بعد قليل يتناهى عزف جميل على الكمان. يستمرّ ذلك فترة. أثناءها يعلو الضوء في المكتب. يظهر جدعون وهو يتلفن. يرن الهاتف في غرفة الجلوس. تأتي راحيل مسرعة من المطبخ وترفع السماعة.... عزف الكمان مستمر..).

راحيل : آلو...

جدعون : السيدة بنحاس..

راحيل : نعم.. من يتكلم؟..

جدعون : إنه جدعون الذي يتموّج ويرتعش كلما سمع صوتك.

راحيل : قلت لك.. لا أحب هذا المزاح.

جدعون : مزاح.. ومن يمزح.. إذا كان الوجد والشوق والرغبة مزاحاً فلا شيء جادّ في الدنيا.

راحيل : إنك تتجاوز الحدود.

جدعون : وهل يعرف المسلوب تمييز الحدود.!

راحيل : سأغضب إن واصلت.

جدعون : جميلة وأنت غاضبة. جميلة وأنت هادئة. جميلة في كل حالاُتك.

راحيل : هناك اعتبارات يا سيد جدعون.

جدعون : منذ رأيتك أول مرة عرفت أني عاجز عن مراعاة أي اعتبار. فيك شيء لا يقاوم. شيء تفتقده كل النساء الأخريات.

راحيل : أرجوك لا تسخر مني.

جدعون : أتسمّين الهيام سخرية؟

راحيل : لديّ متاعب كثيرة فلا تزدها.

جدعون : ألا يمكن أن أكون نافعاً.. جرّبي الاعتماد علي.

راحيل : مع هذه التصريحات، كيف يمكن أن أثق بك!

جدعون : ما الذي لا أفعله كي أكسب ثقتك؟

راحيل : إني بحاجة إلى الصداقة. إلى العون والنصيحة لا أكثر.

جدعون : أهذا ما تحتاجينه فعلاً؟ إن حياتنا قاحلة يا راحيل.. وهي لا تجود..

راحيل : إني متعبة. ولن أصغي إليك.

جدعون : لك ما تريدن. سأذبح قلبي وأقدّم لك هذا الصديق.

راحيل : أتفعل؟

جدعون : تعرفين أني أسيرك. وأنك قادرة على صياغتي كما تشائين.

راحيل : ما أبرع لسانك!

جدعون : لو عرفت مشاعري لوجدت أن لساني مترجم ركيك..

لا . . لا . . اعذريني لن أتحدّث عن مشاعري بعد الآن . هل أستطيع أن أكلّم إسحق؟

راحيل : لحظة . . سأناديه لك .

(تضع السماعة جانباً . يطفو على ملامحها تعبير غريب . تطرق الباب بهدوء ثم بعنف . يتوقّف عزف الكمان ، ويأتي إسحق . .)

إسحق : ماذا هناك؟

راحيل : مخابرة لك .

إسحق : **(يتناول السماعة)** آلو . . أهلاً جدعون . . ما الأمر؟

جدعون : بابا مائير يريدك في المكتب .

إسحق : متى؟ . .

جدعون : هذا المساء .

إسحق : ولكن بابا تركني حراً هذا المساء .

جدعون : طرأت أعمال جديدة . عاد الشحرور من المستشفى .

إسحق : ألا يمكن أن تنوب عني؟

جدعون : عندي مهمّة خارج القسم .

إسحق : ابعث موشي أو دافيد .

جدعون : بابا يصرّ على مجيئك شخصياً .

إسحق : لديّ موعد مع الطبيب .

جدعون : دعك من الدلال . ليس لديك ما تشكوه .

إسحق : أؤكد لك أن موعدي في الخامسة .

جدعون : يمكنك أن تتأخّر بعض الوقت . أم أقول له إن العمل يثقل عليك؟

إسحق : لا تكن أحمق .

جدعون : إذن . . عانق زوجتك الفاتنة وتهيّأ . لديك اليوم حفلة دسمة .

إسحق . طيب . . طيب . . (يضع السماعة بغضب) رجل فاجر . .

راحيل : أتنوي زيارة الطبيب حقاً؟

إسحق : كانت مجرد ذريعة . أحضري لي الحذاء . أنا آسف . غداً سنتغدّى معاً .

راحيل : لا تنس سلاحك .

إسحق : آ . . . نعم .

(يرشق قبلة على شفتيها . . وتتلاشى الإضاءة .)

سفر الأحزان اليومية

المقطع الثاني

(ضوء على الفارعة، ثم يظهر ابنها محمد)

الفارعة : ما أخطأَ إسماعيل حين قال إن الطريق طويلة وشاقّة. نعم إنها طويلة وشاقّة. ذهبت إلى والد دلال. هي أوصتني، وأنا قلت لعلّها تكون مناسبة للصفاء، والدم لا يصير ماء. أبوها ما شاء الله عنده وكالات بالجملة، ويلعبُ بالملايين. حين أخبرته عن ابنته غسّلنا بالشتائم تغسيلاً. هي وأنا معها. خاف أن تسبّب له متاعب مع السلطات فسمّانا قحاباً ومخرّبين.. أي والله سمّانا مخرّبين، وأقسم أن يتبرأ منها أمام الحاكم العام والملأ أجمعين. والاعتقالات لم تهدأ.. وابني محمد زاد على رأسي الهموم. ركب رأسه، وانضم إلى الذين يركبون الباصات كل صباح، ويذهبون للعمل هناك. قلت له

الفارعة : يا ابني لا تكن غصّة في قلبي.

محمد : يا مّه... كلّه شغل.

الفارعة : لا.. الشغل مع ابن البلد شيء.. والشغل مع المحتلّ شيء آخر.

محمد : مع ابن البلد! أنت تعرفين القصّة وما فيها. اشتغلنا

مع أولاد البلد وأكلوا حقّنا. وصلت بيني وبين أبي قحطان للسماء. قلنا له الأجرة ناقصة، فنبر في وجهي وصاح. لماذا النّفَّ. تريد أن تبيع وطنك ودينك لليهود الله معك. لا أحد يمنعك. قلنا له: الذي يبيع وطنه ودينه هو الذي ريّش مع الاحتلال، وصارت عنده وكالات إسرائيلية وتعهّدات. فصرخ كالمسعور: وتعيّرني يا ابن الفاعلة.. وكلمة من هنا، وكلمة من هناك. لولا أولاد الحلال لقضى واحد منا على الآخر. وفي النهاية ما أخذت من حقّي النصف.

الفارعة : لم تخبرني أنك تهاوشت مع أبي قحطان.

محمد : وما الفائدة؟ حاولت ألا أصدّع رأسك بهذه المتاعب.

الفارعة : ومع هذا لا تخلو البلد من أهل الخير. ابق هنا. ولا تنس أن العمل عند الاسرائيليين يغذّي الاحتلال ويعزّزه.

محمد : يا مّه.. اتركي الخطابات وكلام الإذاعات. الاحتلال معزّز، ولن نقاومه بالجوع والجيب الفاضي.

الفارعة : يا ابني.. أنت تعرف ما يقال عن الذين يعملون هناك.

محمد : إذا كانوا لا يريدوننا أن نعمل هنا فليبنوا لنا معامل أو يقدّموا لنا معونات تنعش البلد. يبيعوننا خطابات، ويحدّثوننا عن الصمود ولكن الكلام لا يملأ الجيب الفاضي. أتعرفين كم ينفق بعض الأمراء والفرسان العرب في ملاهي وكازينوهات الغرب؟ أتعرفين كيف

يعيش زعماؤنا في المنفى! دعينا يا مّه ولا تفتّقي لنا المواجع.

الفارعة : إسماعيل نفسه انتقد العمل في مزارعهم وورشاتهم.

محمد : لو كان إسماعيل بلا شغل لتردّد في الانتقاد. وعلى كلٍّ أين إسماعيل الآن؟ الله يهوّن عليه وعلينا. اتركيني يا مّه. الحياة صعبة وأنت تعرفين أن من يأكل العصيّ لا كمن يعدّها. أوقظيني مع الفجر.

الفارعة : ألن تراجع نفسك؟..

محمد : اتكلي على الله.

الفارعة : لا إله إلا الله. لم أعرف كيف أقنعه. ولم أستطع القسوة عليه. أحسست غصة في قلبي، وأدركت أن إسماعيل ما أخطأ حين قال إن الطريق طويلة وشاقّة.

(تتلاشى الإضاءة...)

سفر النبوءات

المقطع الثالث

(عيادة الدكتور أبراهام منوحين..)

الدكتور : ويل لي يا أمي لأنك ولدتني إنسان خصام ونزاع للأرض كلها. لم تزرعي في قلوب أبنائك إلا الكبر وكراهية الأغيار. كيف ينسى المرء تلك الرهبة المليئة بالبغضاء التي تغذّى بها طفلاً! وحين يكبر كيف ينقذ روحه من الاعتلال، أو يتفادى القسوة والعدوان! دفعت الكثير من الوقت والعناء كي أتخلّص من غذاء طفولتي. ولكن هؤلاء الذين يحرصون على غذاء طفولتهم يدفعون ثمناً أغلى.. ذلك اليوم جاء إسحق بنحاس إلى عيادتي، وتدبّرت الأمر كيلا ينتظر طويلاً.

(يدخل إسحق متجهّماً ومرتبكاً.)

إسحق : مساء الخير يا دكتور.

الدكتور : مساء الخير. سبق لي التعرّف على السيدة زوجتك. ويسعدني أن ألتقي بك.

إسحق : شكراً.. أما المريض هذه المرة فهو أنا.

الدكتور : تفضّل بالجلوس **(يمدّ له علبة سجائر)** أتريد سيجارة؟

(يضحك إسحق بعصبية وهو يتناول سيجارة.. يشعلها له الدكتور.)

إسحق : شكراً. اعذرني إذا ضحكت. بادرتني بما أبادر به الآخرين عادة.

الدكتور : هل تقدّم السجائر؟

إسحق : نعم.. ولكن لندع هذا جانباً.

الدكتور : تفضّل.. ما الأمر؟

إسحق : ليس الأمر سهلاً.

الدكتور : إني هنا لمساعدتك. استرخ، وابدأ من أي نقطة تشاء.

إسحق : لعلّ من الأفضل.. أن أقول كل ما لديّ دفعة واحدة.. منذ فترة وأنا لا أستطيع القيام بواجباتي الزوجية.

الدكتور : هل تخيفك الكلمة؟

إسحق : أي كلمة ؟

الدكتور : العجز. تريد أن تقول إنك تعاني عجزاً جنسياً.

إسحق : نعم.. وهذا يرعبني كثيراً.

الدكتور : لنحاول إيضاح المسألة. هل تشرع في الجماع، ولا تستطيع إنجازه أم أنك لا تشعر أساساً بالرغبة؟

إسحق : أحاول ولا أستطيع. لكن لا أعرف إن كنت حقيقة أشعر بالرغبة. زوجتي تبذل أقصى ما في وسعها لإنعاشي وإثارتي، ولكن لا فائدة. أحياناً لا يحدث شيء على الإطلاق، وأحياناً يتمّ القذف دون توقّع، وقبل أن أستكمل الوضع اللازم.

الدكتور : حتى الآن لا ينبغي أن تقلق. هذه الأعراض مألوفة، وتحدث أكثر مما يظنّ الناس عادة.

إسحق : يسرّني أن أسمع ذلك يا دكتور.

الدكتور : هل مررت بتجربة مماثلة في ظروف أخرى؟

إسحق : أحياناً لم أكن أشعر بشهوه. لكن هذا عاديّ فيما أعتقد.

الدكتور : والقذف دون توقّع.. هل عرفته من قبل؟

إسحق : لم يحدث لي من قبل.

الدكتور : هل أنت رجل حادّ المزاج يا سيد بنحاس؟

إسحق : لنقل إني صاحب مزاج خاصّ.

الدكتور : هل تحب زوجتك؟

إسحق : أكثر من أي امرأة أخرى.

الدكتور : ألا يمكن أن تشعر ولو لفترة عابرة أنك مُتْعَب منها؟

إسحق : لا.. يا دكتور.. في البداية خطرت لي هذه الفكرة، وقلت لنفسي يستحسن التنويع. بعد الزواج لم أعاشر إلا زوجتي، وقرّرت أن أجرّب امرأة أخرى. من أجلها.. من أجل أن أعود إليها.. وذهبت بثقة بالغة إلى امرأة كنت أحبّها كثيراً من قبل.. كانت تجربة مذلّة ومهينة. وبعدها استبدّ بي الخوف.

الدكتور : كم ساعة تعمل في اليوم؟

إسحق : أعمل كثيراً، لكني أتمتّع بصحّة جيدة. لا.. لست مرهقاً ولامسمّماً لا أشرب ولا أدخن إلا نادراً. وأكثر من ذلك.. في الأيام الأخيرة أخذت حقن هرمونات. طلبتها من طبيب الإدارة متذرّعاً بأنني أمرّ بمغامرة خاصّة ولا أريد أن أهمل زوجتي أثناءها. وكل هذا بلا جدوى.

الدكتور : يبدو أنك معافى من حيث القوّة الجنسيـة . . والآن أجبني بصراحة . أرجوك فهذا هو الأفضل .

إسحق : عن أيّ شيء؟

الدكتور : هل شعرت وأنت كبير بميل جنسي، مهما كان ضئيلاً، نحو الذكور؟

إسحق : إطلاقاً .

الدكتور : وأنت صغير؟

إسحق : على ما أذكر . . . أبداً .

الدكتور : ألديك مع النساء ميول أخرى غير ممارسة الحب؟

إسحق : ما الذي تعنيه بالميول الأخرى؟

الدكتور : الاكتفـاء بالمـداعبة . القسـوة . الامتناع إرادياً عن إتمـام العملية .

إسحق : إني أتمّ العملية دائماً . والخشونة تثير نفوري سواء بدرت منها أو مني .

الدكتور : إذن فـأنت طبيعي أكـثر من المعتـاد يـا سيّـد بنحـاس . اطمئنّ، سنجد العلّة . ما هو عملك؟ . .

إسحق : أنا؟ . . . موظف حكومي .

الدكتور : وما وظيفتك؟ . .

إسحق : لسنا معتادين على الصراحة في هذا الموضـوع . ثم إني لا أفهم العلاقة بين عملي وما أشكوه .

الدكتور : هل تنتمي إلى أحد فروع الأمن؟

إسحق : ليكن . . لا ضرر إن عرفت . أنتمي إلى الفرع الـداخلي في الأمن القومي . .

الدكتور : الفرع الذي يهتمّ بالسكان المحليين؟

إسحق : نعم . . وأرجو أن تكون ممن يقدرون أهمّية عملنـا .

الدكتور : كيف بدأت العمل في الأمس؟

إسحق : وماذا يفيدنا الخوض في هذا الحديث؟

الدكتور : ربما كان مفيداً .

إسحق : أعمل في الفرع الـداخلي وهـو ما نسمّيـه القسم السياسي منذ ثلاثة أعوام . أمـا جهاز الأمن فقـد التحقت به بعـد فترة تدريبي العسكري . . أي منذ عشر أعـوام تقريبـاً . مات والدي وأنا صغير .

الدكتور : كم كان عمرك؟

إسحق : ست سنوات وبضعة أشهر .

الدكتور : وماذا كان يعمل أبوك؟

إسحق : كـان يعطي دروسـاً في المـوسيقـى . وعـلى كـل، لا أكـاد أتذكّره .

الدكتور : ألا تعتقد أنه ترك فيك أيّ أثر؟

إسحق : ربمـا . . حبّ الموسيقى . إنّي أحبّ العزف عـلى الكـمان . بعـد موتـه ربّتني أمي وتعهّدت حيـاتي . . حتى الآن . لم تكن تحب أن أعـزف على الكـمان، أو أن أتابـع دراستي الجامعية . اقترح رئيسي، وهو صـديق للعائلة أن يعـدّني للالتحاق بالأمن . . وهكذا بـدأت الخدمـة . وحين رأى أني نضجت سياسياً نقلني إلى القسم الذي يرأسه .

الدكتور : هل أفهم أنك أجبرت على هذا العمل؟

إسحق : طبعـاً لا . . حين كنت صغيـراً لم أكن أقـدّر مصلحتي

جيداً. أما الآن فأنا أحبّ عملي، وأشعر بالاعتزاز لأني أخدم وطني.

الدكتور : عظيم . . في رأيك ما هي الأسباب الممكنة لهذا الاضطراب الذي تعانيه؟ أسألك. . لأن المريض أحياناً يشكّ بشيء ما. . وشكّه يضيء لنا الطريق.

إسحق : أنا. . لا أعرف.

الدكتور : فكّر معي. . ألم يعرض لك في الفترة الأخيرة أمرٌ له علاقة بالجنس؟ حلم. قصة. . تجربة رأيتها أو سمعت عنها. .

إسحق : لا. . .

الدكتور : لماذا لا تنظر إليّ؟

إسحق : قلت لك لا.

الدكتور : لماذا طرفت عيناك حين طرحت السؤال؟

إسحق : مجرّد صدفة.

الدكتور : لا. . ليست صدفة. أنت رجل أمن، وتعرف مغزى هذه الاستجابات العفويّة.

إسحق : هذا لا علاقة له.

الدكتور : وما أدراك. . احك. . حتى ولو بدا لك الأمر بلا أهمية.

إسحق : ولكنه أمر لا علاقة له بما نحن فيه. إضافة إلى أنه شيء من أسرار المهنة.

الدكتور : وأساس مهنتي هو حفظ الأسرار يا سيّد بنحاس. هنا يأتي الناس ليقصّوا عليّ أسرارهم.

إسحق : مهما كان. . . لا يجوز أن أبوح به.

الدكتور : كما تشاء. ولكن في هذه الحالة لا أستطيع مساعدتك.

إسحق : طيّب. . سأحكي ما دمت مصمّماً. إلا أني لا أرى العلاقة بين هذا و. .

الدكتور : تكلّم يا سيد بنحاس.

إسحق : إنها أمور قد يساء تقديرها، لكنها ضرورية.

الدكتور : أنا هنا لأعالج لا لأحكم.

(ينمو الضوء تدريجياً في مكتب مائير، وتظهر كتلة السلالم المخيفة.)

إسحق : هناك. . نحن نتعامل مع حثالات. . قرود تسير على قائمتين ولا تحسن إلا الشرّ والكذب.

الدكتور : مَنْ تعني؟

إسحق : العرب طبعاً.

الدكتور : طيّب. . . أرجوك تابع.

إسحق : منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، كان علينا أن نعامل بصلابة واحداً من تلك الحثالات. وقد أرادني بابا إلى جانبه.

الدكتور : بابا؟

إسحق : هكذا نسمّي رئيسنا مائير، وهو رجل عظيم.

الدكتور : أأنت من سمّاه كذلك؟

إسحق : لا أذكر. كلنا نناديه بابا.

الدكتور : هل هو صديق العائلة القديم؟

إسحق : هو نفسه.

الدكتور : استمرّ من فضلك.

(ينهض إسحق، ويتّجه نحو السلالم، ثم يبدأ بالصعود إلى المكتب.)

إسحق : في الفترة الأخيرة كثرت عمليات التخريب. وتعرف حساسيّتنا تجاه كل ما يمسّ الأمن. إن العرب الذين سحقناهم في الحروب، تحوّلوا كأي جبان إلى أعمال الإرهاب والتخريب. وقد علّمنا تاريخنا أن خير وسيلة لمواجهة الشرّ هي استئصاله قبل أن يستفحل. إن مهمّتنا شاقّة. ولولا يقظتنا لتهدّد أمن الدولة اليهودية. هل نعاملهم بقسوة؟ ولكن هذا ضروريّ. إن اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الهمج هي الشدّة.

(يدخل إسحق إلى المكتب، ويتقدّم من مائير. يؤدي له التحية.)

إسحق : سيدي.. ها هو اعتراف المتّهم الذي كلّفتني به.

مائير : هذه سرعة قياسية.

إسحق : إنه خرقة براز. لم يتحمّل إلا قليلاً من الضغط.

مائير : هل باض نيئاً أم مطبوخاً؟..

إسحق : لا أعتقد أنه طريدة حقيقية.

مائير : وما الفرق. عملنا أن نمحق الإرهابيين، وأن نروّع الآخرين.

إسحق : لكن إسماعيل طريدة حقيقية.

مائير : سيأتون به الآن. وسنحمله على الاعتراف مهما كلّف الأمر.

إسحق : ما الذي لم نجرّبه معه؟

مائير : لدي دائماً مليّنات احتياطية. أريدك إلى جانبي وأنا أدير هذه الحفلة.

(يقرع جرس المكتب.. يرن الهاتف، فيرفع السماعة)

مائير : آلو.. نعم.. تقارير صحفية عن حالة المعتقلين. لن أوسخ مؤخرتي بها.. هذا شأنكم.. لا أبالي بالمحامين الدوليين. خذوهم لزيارة حائط المبكى أو القدس القديمة.. نعم هناك حملات اعتقال واسعة لم نحرّر يهوداً والسامرة كي يعشّش فيها الإرهاب.. أرجوكم.. نحن نعمل عملنا، وعلى السياسيين صياغة التصريحات المنمّقة... أنا مشغول الآن.. إلى اللقاء **(يضع السماعة بحنق)** هؤلاء المدنيّون المخنّثون يثيرون أعصابي.

(يدخل دافيد وهو يقود إسماعيل المكبّل بالأغلال.)

مائير : فك قيوده يا دافيد **(يفك دافيد قيوده. يتحسّس إسماعيل معصمه. يقترب منه مائير)** هل كانت القيود ضيّقة؟

دافيد : ليست ضيّقة. ولكن أي احتكاك يؤلمه بسبب الحروق.

مائير : آ.. الحروق. ما هذه إلا لسعات بسيطة. آثار شرارات تطايرت من المعدن. كم مرة وضعناه تحت التيار يا دافيد؟

دافيد : لا شيء يا سيدي.. ست مرات فقط.

مائير : أرني أظفارك **(يمسك يده اليسرى)** نحن لا نحبّ الضيوف العنيدين. لماذا لا تتعلّمون؟ **(يضغط على أطراف أصابع اليد. يكتم إسماعيل تأوّهاته)** ألم تدفعوا ثمن العناد غالياً.. أربع حروب وأربع هزائم. الأبله وحده هو الذي لا يستوعب الدرس بعد أربع هزائم. **(يشتد ألم إسماعيل)** لا تتباكَ.. فنحن لم نمسّ بعد يدك اليمنى. إننا نحتفظ بها سليمة للتوقيع.

(يدخل موشي حاملاً ورقة وعلى وجهه أمارات الظفر.)

موشي : سيدي . . أخيراً باضت فرختي أسماء وأمكنة اتصال ولقاءات .

مائير : (يتناول الورقة ، ويتفحّصها) ماذا تأمل بعد ذلك؟ كلهم تخلّوا عن البطل . اعترفوا ووقّعوا . اقترب . . أيهمّك أن ترى اعترافاتهم . . انظر إذن . .

(يتطلع إسماعيل بفضول واهتمام إلى الورقة ، ثم ينفجر بالضحك .)

موشي : (يهجم عليه) أتضحك يا ابن الزانية؟

مائير : دعه يا موشي . علام تضحك؟

إسماعيل : هل اعترفوا بالعبرية؟

مائير : أتريد أن نستخدم العربية في محاضرنا؟

إسماعيل : علام وقّعوا إذن؟

مائير : على اعترافاتهم .

إسماعيل : اعترافاتهم المكتوبة بلغة لا يفهمونها .

موشي : اسمعوا ابن الشرموطة . وفوق هذا يماحك .

مائير : هل تظن أننا زوّرنا الاعترافات؟

إسماعيل : لا أدري . . هذا شأنكم .

مائير : دعك من المكابرة . كلهم خانوك ، وتساقطوا كالبراز . أعطه سيجارة يا إسحق .

(يتناول إسحق علبة سجائر عن الطاولة ، ويمدها لإسماعيل الذي يتجاهلها .)

إسحق : خذ . . .

مائير : أتخشى على طهارتك . . ليكن . . دعه على راحته يا إسحق . قرّرنا اليوم أن نكون ودودين معك . ولكن لا

تخدع نفسك . صارت لدينا لوحة شبه كاملة . لم تبق إلا بضعة تفاصيل صغيرة وتنتهي ضيافتنا . في العاشرة من الشهر الماضي ، التقيت زائراً جاء من خارج البلاد وأعطاك رزمة حملتها إلى مكان وشخص نعرفهما . كل ما نريده هو اسم الزائر ، وهل أدخل الرزمة معه ، أم أعدّ محتوياتها هنا؟

إسماعيل : لم ألتق أي زائر ، ولم أحمل أي رزمة .

مائير : الشخص الذي تسلّم الرزمة ، وأصيب في العملية ، ذكر اسمك قبل أن يموت .

إسماعيل : قلت لكم لا أعرفه .

مائير : لدينا اعترافات عديدة تؤكّد صلتك به .

إسماعيل : ومع هذا لا أعرفه .

مائير : هذا العناد محزن ، إنك لا تساعد نفسك . ألا تحنّ إلى بيتك وزوجتك؟ أعتقد أنك لم تتزوّج منذ زمن طويل .

موشي : منذ ثلاثة أشهر فقط .

مائير : ما زلت في شهر العسل . لماذا تفرِّط بسعادتك مجاناً؟ . . ألا تحبّ أن تنجب طفلاً . . ومن يدري لعلّها حامل . . بكل أريحيّة أقترح عليك أن تعترف .

إسماعيل : أخبرتكم بما لديّ .

مائير : أتسمع يا إسحق . لقد أخبرنا بما لديه . نادوا جدعون (يذهب دايفيد إلى باب غرفة الانتظار) أمتأكّد أنه لم يبق لديك ما تخبرنا به؟

إسماعيل : أخبرتكم بما لديّ .

مائير : إذن، دعونا نتهيّأ لاحتفالي عائلي بسيط.

(من غرفة الانتظار، يأتي جدعون وهو يدفع دلال المقيّدة بالسلاسل أمامه.)

جدعون : ها هي العروس يا سيدي.

(يبدو إسماعيل مصعوقاً. أما دلال فعلى وجهها تعبير ذاهل وفي عينيها بريق غريب.)

إسماعيل : عونك يا رب...

دلال : (هامسة) إسماعيل.. ها نحن نلتقي.

إسماعيل : اغفري لي يا دلال.

مائير : ألا تعانق عروسك؟ أحبّ مشاهد العشق.

إسماعيل : هي لا شأن لها. عذّبوني كما تشاؤون. افعلوا بي ما تريدون. ولكن دعوها بعيدة عن هذا الجحيم.

مائير : أنقذها إن كنت تحبّها إلى هذا الحدّ.

دلال : قالت لي الفارعة لا تخافي.. أنت أقوى منهم.

مائير : هل أخبرتنا بكل ما لديك؟

دلال : وقالت ارفعي رأسك. وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم.

إسماعيل : ليس لديّ ما أخبركم به.

مائير : لنبدأ العرس.

(دافيد وموشي يجرّان إسماعيل. وجدعون يمسك عجيزة دلال ويدفعها. الجميع يتجهون إلى الغرفة الداخلية.)

جدعون : تعالي يا وافرة الخيرات (تبصق عليه) آه.. هكذا أريدك. شرسة أريد عروسي يا رفاق. إني أنتصب كجبل جلعاد.

إسماعيل : كلاب.. كلاب.

(تردّد الكلمة بايقاعات مختلفة حتى تتحوّل إلى ما يشبه الحشرجة يتفنّنون في الغرفة الداخلية.)

مائير : سترى كيف تحلّ عقدة لسانه. لا يهزّ المرء إلا ما يمسّ رجولته. وهؤلاء البهائم يودعون كل كبريائهم في فروج نسائهم.

إسحق : وإذا لم يتكلّم..

مائير : لا بدّ أن يتكلّم. هذه الوسيلة أكثر فاعلية من التيّار الكهربائي. هل تمتشق عصاك، وتبدأ الاحتفال؟

إسحق : دع جدعون يبدأ.

مائير : وددت لو أنك البادىء. لا يهمّ.. ستدير الحفلة معي. **(يلفّه بذراعه ويمضيان نحو الغرفة)** لا أدري إذا كان بوسعك أن تفهم ذلك يا بنيّ. هذه الحفلات تثير فيّ نشوة تكاد تكون دينية. نعم.. دينية.

(يدخل مائير إلى الغرفة، فيما يعود إسحق إلى العيادة. تبدأ الإضاءة بالانحسار عن المكتب.)

إسحق : وهكذا مضت الحفلة حتى نهايتها.

(يرين صوت متوتّر. الدكتور مطرق الرأس.)

الدكتور: هل تكلّم الرجل؟

إسحق : أصابته تشنّجات قلبيّة، وانهار قبل أن يتكلّم. بعد الحفلة نقلناه وزوجته إلى المستشفى. لكنه سيعود إلى المركز.

الدكتور : ماذا فعلت في الحفلة؟

إسحق : وما أهميّة هذه التفاصيل؟

الدكتور : هل شاركت في الاغتصاب؟

إسحق : لا . . .

الدكتور : لماذا؟

إسحق : هؤلاء العربيّات. من يضمن. . خفت أن تنقل لي عدوى ما.

الدكتور : ماذا فعلت إذن؟

إسحق : (متردداً) كان يجب أن نكسر خصيتيه تماماً. وضعت قدمي بين فخذيه، ورحت أضغط وفق طريقة تعلّمناها من بابا. وكان جدعون شديد الهياج.

الدكتور : وأنت؟ هل تهيّجت؟

إسحق : في البداية. . حين راقبت جدعون وهو يروّضها. ولكني فترت فجأة.

الدكتور : واكتفيت بالمراقبة!

إسحق : ولكن هذا كله بلا معنى.

الدكتور : أرجوك تابع. إننا نقترب. ماذا فعلت؟

إسحق : كانوا يتوالون عليها. وكان ثمة صراخ وشتائم وموسيقى صاخبة. إننا نستخدم الموسيقى في مثل هذه الحالات، وفجأة بدأ يضيق صدري. . لا. . لا أرى فائدة من سرد هذه التفاصيل.

الدكتور : (بحزم) تابع.

إسحق : إنها توافه يا دكتور.

الدكتور : قلت لك تابع. .

إسحق : فجأة بدأ يضيق صدري. . ثم تحوّل الضيق إلى غضب

أعمى، فتناولت شفرة واقتربت منها. أنت تعرف أن العربيّات يحلقن شعر العانة. كان فرجها أملس وملطخاً بسوائل الآخرين. وأحسست أني محموم. أنحنيت عليها وبدأت أشقّ أثلاماً صغيرة في لحمها. شطبت عانتها وثديها ثم أوقفني مائير. كان العرق يتصبّب مني. وكان كلاهما قد فقد وعيه.

(يخيّم صمت رصاصيّ ومديد. إسحق منهك ومتوتّر.)

الدكتور : هل أنت نادم على ما فعلت؟

إسحق : نادم. ! ولِمَ الندم. ! كان ذلك جزءاً من واجبي.

الدكتور : ولم تتقزّز مما فعله زملاؤك ؟

إسحق : طبعاً لا. . بل كنت ألوم نفسي لأني لا أملك خشونة وعفويّة جدعون. خفت أن يظنّ بابا أني أقل صلابة مما يأمل.

الدكتور : الحالة واضحة يا سيد بنحاس.

إسحق : واضحة. . .

الدكتور : تقول إنك لم تندم، ولم تتقزّز.

إسحق : ليس هناك ما أندم عليه، أو أتقزّز منه. كانت حادثة عرضية مما يقع لنا كل يوم في عملنا. هؤلاء المخرّبون أحطّ أنواع المجرمين.

الدكتور : ليتك شعرت بالندم.

إسحق : لا أفهم.

الدكتور : لقد اخترت لا شعورياً التعبير عن ندمك بالمرض. إنك تعاقب نفسك على ما فعلتموه بالمرأة وزوجها. وربما بدأ هذا العقاب وأنت في الحفلة.

إسحق : اسمع يا دكتور. لقد قرأت شيئاً عن هذه الأمور، ويؤسفني أن أقول لك إنها غير مقنعة.

الدكتور : ركّز انتباهك يا سيد بنحاس. هناك صوت في أعماقك الخفيّة يقول إن ما فعلتموه، ما كان يجوز أن تفعلوه حتى ولو أكّدت أن العمل أو الواجب يقتضيه، ولكي تشفى.. عليك إما أن تقرّ بصورة واعية أنك ارتكبت جرماً رهيباً لا يمكن تبريره، وإما أن يتوفّر لك الاقتناع المطلق بأن هذه الأعمال عادلة وجديرة بالاحترام. ولا أظن أن أحداً يمكن أن يقتنع في أعماقه بشيء كهذا.

إسحق : إني مقتنع بعدالة عملي. وإذا صحّ تحليلك فهو يعني أن أعصابي ما زالت تخونني، أو أنني لم أصل درجة النضج الكافية.

الدكتور : نعم يا سيد بنحاس.. في تربيتنا الصهيونية يعلّموننا الكراهية بصورة دؤوبة، ولكنهم لا يبالون بالحدود التي يمكن أن تتحمّلها بنيتنا الإنسانية. إن الكراهية المطلقة هي الحدّ الذي يمكن أن يسوّغ كل شيء، ويمنع الاختلال، ولكن من هو الإنسان الذي يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟

إسحق : زملائي في العمل لا يشكون من شيء. وأنا أيضاً سأعرف كيف أتفوّق على ضعفي.

الدكتور : وما أدراك أن زملاءك لا يشكون من شيء؟ ربما ليس لديهم ضمير يَخِزُهم، ولكنهم ليسوا أصحّاء أكثر منك.

إسحق : على الأقل.. هناك واحد لا يتطرّق إليه الشك.

الدكتور : رئيسك؟

إسحق : نعم...

الدكتور : لعله يعاني من الأرق وأوجاع المعدة.

إسحق : ليست لديه أوجاع. كل هذه التحليلات النفسية [illegible] أجوف.

الدكتور : لم أجبرك على المجيء..

إسحق : أريد الشفاء.

الدكتور : لا يمكن إصلاح ما حدث. أنت لا تستطيع أن تردّ لتلك المرأة كرامتها، أو لذلك الرجل المسكين رجولته.. ولهذا فقد قضيت على رجولتك. إنها مفارقة غريبة، ولكن هي الحقيقة. شفاؤك يكمن في مرضك. ولعلّه من صالحك.. لكن..

إسحق : أكمل يا دكتور.

الدكتور : لا شيء.. لا يمكنني متابعة حالتك. كان يجب أن تدفع ثمناً غالياً لما فعلت. ولكي تكفّ عن دفع هذا الثمن ينبغي أن تدفع ثمناً آخر لا يقلّ عنه جسامة.

إسحق : وما هو هذا الثمن؟

الدكتور : لا أدري.. قد تحتاج إلى تحوّل كبير. ربما تضطر إلى هجر عملك أو البحث عن كفّارة صعبة الأداء. ولكنك لم تعد شاباً صغيراً، ولا أحسب أنك تجرؤ على تحطيم مستقبلك وجزء هامّ من شخصيتك.. لا.. لا أستطيع أن أتركك تزورني مرة بعد الأخرى دون فائدة.

إسحق : أنت تصرفني لأني أثير نفورك. ولكنك هلاّ تساءلت عن سبب نفورك؟ هيا اعترف.. اعترف أنك كنت تجادلني

وتقبّح عملي، كي تجرّني إلى الموقف المتشكّك. موقف هؤلاء المخنثين الذين لا يكفّون عن التذمر. إذا انتصرنا تذمّروا. وإذا حرّرنا أراضينا خافوا. وفي النهاية ليس لديهم ما يقدمونه لدولة إسرائيل إلا الوساوس والشكوك. طبعاً أنت لست صهيونياً، وأنت تعيش في إسرائيل، ولم تفعل إلا عرقلة قيامها وازدهارها.

الدكتور : إسمع يا سيد بنحاس. لا تظن أني أخاف من إعلان رأيي. إن ولائي ليس للقانون بل للعدالة. وليس فيما تفعلونه أيّ عدل. وليس في احتلال الأراضي أيّ عدل. وليس في التزمّت الصهيوني الذي تأسّست عليه دولة إسرائيل أيّ عدل. نعم.. إني من هؤلاء المخنّثين أمثال موشي منوحين وجوليوس كاهن وإينشتاين ودويشتر. ونحن نفخر بوساوسنا لأنها حمتنا من البؤس الروحي الذي تغرق فيه دولتنا المعجزة. لا.. لا أقبل ما تفعلونه مهما كانت ذريعته.. والآن يمكنك أن تشي بي، أو تتخذ ما تراه من الاجراءات.

إسحق : كنت أعلم أن هذا ما تفكر به. كم يجب أن أدفع لهذه الزيارة؟

الدكتور : لا شيء هذه المرة... مع السلامة.

(يخرج إسحق. فترة صمت. الدكتور مجهد وحزين.)

الدكتور : وقال الربّ اكتبوا هذا الإنسان عقيماً رجلاً لا يفلح في أيامه ولا يفلح من ذرّيته أحد. جاء يطلب معونتي ولم أستطع أن أقدّم له أيّ عون. حين روى لي ما فعلوه

شعرت بالاعتلال، وبما يشبه التورّط. كان يجرّني معه شاهداً على تاريخنا. على تاريخه وتاريخي. وما كان بوسعي أن أختبىء وراء قناع مهنتي. ما فعله لم يكن جريمة فرديّة تخصّه وتخصّ علم الأخلاق، بل كان حدثاً له مغزاه وأثره على تاريخنا جميعاً. مرضى وأطباء. فحولاً ومخنّثين. لا.. ما كان بوسعي أن أختبىء خلف قناع الطبيب البارد والمحايد.. ولا تدخل بيت الوليمة لتجلس معهم وتأكل وتشرب.

(يتلاشى الضوء عن العيادة والطبيب.)

وتقبِّح عملي، كي تجرّني إلى الموقف المتشكّك. موقف هؤلاء المخنثين الذين لا يكفّون عن التذمر. إذا انتصرنا تذمّروا، وإذا حرّرنا أراضينا خافوا. وفي النهاية ليس لديهم ما يقدمونه لدولة إسرائيل إلا الوساوس والشكوك. طبعاً أنت لست صهيونياً، وأنت تعيش في إسرائيل، ولم تفعل إلا عرقلة قيامها وازدهارها.

الدكتور : إسمع يا سيد بنحاس. لا تظن أني أخاف من إعلان رأيي. إن ولائي ليس للقانون بل للعدالة. وليس فيما تفعلونه أيّ عدل. وليس في احتلال الأراضي أيّ عدل. وليس في التزمّت الصهيوني الذي تأسّست عليه دولة إسرائيل أيّ عدل. نعم.. إني من هؤلاء المخنّثين أمثال موشي منوحين وجوليوس كاهن وإينشتاين ودويشتر. ونحن نفخر بوساوسنا لأنها حمتنا من البؤس الروحي الذي تغرق فيه دولتنا المعجزة. لا.. لا أقبل ما تفعلونه مهما كانت ذريعته.. والآن يمكنك أن تشي بي، أو تتخذ ما تراه من الاجراءات.

إسحق : كنت أعلم أن هذا ما تفكر به. كم يجب أن أدفع لهذه الزيارة؟

الدكتور : لا شيء هذه المرة... مع السلامة.

(يخرج إسحق. فترة صمت. الدكتور مجهد وحزين.)

الدكتور : وقال الربّ اكتبوا هذا الإنسان عقيماً رجلاً لا يفلح في أيامه ولا يفلح من ذرّيته أحد. جاء يطلب معونتي ولم أستطع أن أقدّم له أيّ عون. حين روى لي ما فعلوه

شعرت بالاعتلال، وبما يشبه التورّط. كان يجرّني معه شاهداً على تاريخنا. على تاريخه وتاريخي. وما كان بوسعي أن أختبىء وراء قناع مهنتي. ما فعله لم يكن جريمة فرديّة تخصّه وتخصّ علم الأخلاق، بل كان حدثاً له مغزاه وأثره على تاريخنا جميعاً. مرضى وأطباء. فحولاً ومخنّثين. لا.. ما كان بوسعي أن أختبىء خلف قناع الطبيب البارد والمحايد.. ولا تدخل بيت الوليمة لتجلس معهم وتأكل وتشرب.

(يتلاشى الضوء عن العيادة والطبيب.)

سفر الأحزان اليومية

المقطع الثالث

(إضاءة على غرفة دلال . . تظهر الفارعة أولاً، ثم تتبين دلال . تجلس في حالة غياب . .) .

الفارعة : اتسعت حملة الاعتقالات، وازداد عدد البيوت المنسوفة، وكنت لا أكاد أستقرّ في مكان حين أُفرج عن دلال . . . رأيتهـا أدركت فظاعـة ما حـلّ بهـا . خـلال أيـام استـ... شبابها، ورموها في كهولة مبكرة . كانت هادئة وصامتة، كان فيها وقار مرعب يشبه اللغم الموقـوت . أنهمر عليها بالأسئلة، فتحملق فيَّ مترفّعة عن الإجابة .

(إلى دلال) قولي . . . ماذا فعلوا بك؟

(صمت)

دلال : أين الطفل؟

الفارعة : عاد إلى أمّه .

دلال : لو أنه بقي في الرحم، ولم يخرج إلى الظلمة .

الفارعة : حدّثيني يا ابنتي . فضفضي عن نفسك .

(صمت)

الفارعة : ماذا أرادوا منك؟ عمَّ سألوك؟

(صمت)

: هذه الرائحة . . هذه الرائحة . .

: أية رائحة؟

: رائحة لا تزيلها عطور مصر والشام، ولا تغسلها مياه الأردن والفرات .

: هل أهيّىء لك الحمام؟

(صمت)

: تكلمي . . اصرخي . . لا تحصري الرعب في قلبك .

(صمت)

: يجب أن تخبريني . هل عرفت شيئاً عن إسماعيل؟

: لا يُجبر إناء الخزف إذا كُسر .

: ماذا تعنين؟ هل حدث له شيء؟

: لا يستطيع المرء أن يخلع بدنه كما يخلع سروالاً وسخاً .

: ولكن ماذا جرى؟

(صمت)

: خفت من هدوئها وعباراتها المفككة . ولم ألحظ أنها خلف وقارها الصامت، كانت تستكمل مخاضها .

(تتغير الإضاءة)

: الأرض ضيّقة يا خالة .

: إنها أرضنا .

: أرضنا التي لا نملك فيها حتى أجسادنا .

: أعرف أن تجربتك كانت قاسية .

: الأرض لا تتّسع لنا ولهم . إما نحن وإما هم .

: الأرض مباركة . ولولا نزعة العدوان لاتسعت للجميع .

دلال : الأرض أضيق من القبر إذا لم يزولوا. إما نحن وإما هم.

الفارعة : يا ابنتي . لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.

دلال : وهؤلاء الذين يحاربون، ويعذّبون، وينتهكون كل شيء.. من يكونون؟ ألديك ميزان للقلوب.. لا... إما نحن وإما هم.

الفارعة : هذه عبارات قد تتحوّل ضدنا.

دلال : لا أحبّك حين تتفاصحين يا خالة.

الفارعة : لا أدري يا ابنتي... هذا ما تعلّمته من الشباب. قالوا لي نحن مناضلون ولسنا قتلة. قضيّتنا عادلة. وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية لا أن نقتل البشر.

دلال : وهل إسرائيل شيء، والصهيونية شيء آخر؟ اسمعي يا خالة.. في بيت أبي لم أعرف شيئاً عن إسرائيل. كان أهلي يعيشون في قوقعة من الثراء والتعالي. يخافون من الثورة والرعاع ونادراً ما كانوا يذكرون إسرائيل. حتى حرب الـ ٦٧ لم تهزّهم. وأبي لم يُخفِ شماتته بعبد الناصر وأنصاره. وحين تزوجت أشفق عليّ زوجي، ولم يحدّثني الكثير عن إسرائيل. لكنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي. أتعلمين أن لإسرائيل رائحة!

الفارعة : لم أفكر في هذا.

دلال : رائحة فظيعة تملأ أنفي وجوفي ومسامي. ختمت إسرائيل هويّتها على جسدي، ولن يمحو هذا الختم

الرهيب إلا الموت. ما عرفته يا خالة يكفيني. وأنا الآن جاهزة. خذيني إليهم.

الفارعة : ألا تتمهّلين قليلاً؟

دلال : ولِمَ التمهّل ؟

الفارعة : هل فكرت في الأمر وعزمت؟

دلال : كل العزم.

الفارعة : كم كنت آمل ذلك.. ولكن دعينا نبدأ بالمهمات اليسيرة.

دلال : لا.. من صاحب الموت لا تليق به إلا المهمات الكبيرة. وأقول لك منذ الآن.. عليهم أن يقبلوني بحقدي ويأسي.

الفارعة : لا أريدك أن تندفعي تحت وطأة اليأس.

دلال : يأسي هو قوّتي. وهذا العدوّ لن يوجهه إلا حاقد ويائس.

الفارعة : وإسماعيل؟..

دلال : مع تعاقب الفصول وإلى آخر الزمن سيبحث كل منا عن الآخر، ليلملم جسده المبعثر، وينفخ فيه الحياة. وكلما تناثرت أعضاؤنا بدأنا مع تعاقب الفصول رحلة جديدة.

(تخرج دلال.. وتبقى الفارعة)

الفارعة : وانضمت إليهم، حملت يأسها كالحقيبة وانضمت إليهم. بقي معي مفتاح وغرفة فيها رائحة منزلية، وعبارة لا ينقطع لها رنين. إما نحن وإما هم.

(يتلاشى الضوء عنها....)

سفر النبوءات

المقطع الرابع

(الدكتور في زاوية نصف مضاءة. ثم يعلو الضوء في مكتب مائير. نرى مائير وإسحق.)

الدكتور : جعلوا كرمي خراباً خراباً ينتحب إليّ. قد خربت الأرض لأنه لا إنسان يتأمل في قلبه.

(الإضاءة كاملة في المكتب. مائير يتحدث في الهاتف.)

مائير : هاتوه حالاً. (يضع السماعة) إني متلهّف للقائه. لم أشأ تأجيل ذلك إلى الغد.

إسحق : وماذا نأمل منه؟

مائير : لا مفر أمامه. يجب أن يتبرّز ما لديه.

إسحق : لم يبق لديه ما يفيدنا.

مائير : بل بقي شيء هام. أتظن يا إسحق أن ما يشغلني هو المعلومات؟ إلى الجحيم بالمعلومات. لدينا منها ما يفيض عن حاجتنا الأمنية. ولكن ماذا عن كبريائه؟ هل نسمح لهؤلاء القتلة أن يتدرّبوا على الكبرياء. هذه بيضة الأفعى التي ينبغي أن نحطمها قبل أن تفقس.

إسحق : لا أظن أنه سيتكلم.

مائير : ستجعله يعوي ويبيض. أريدك أن تقود الحفلة.

إسحق : كنت...

مائير : ما أمرك يا إسحق.. هل أنت متوعّك؟

إسحق : لا.. لا شيء على الإطلاق.

(يرن الهاتف، فيرفع مائير السماعة.)

مائير : آلو.. أهلاً دكتور.. أتخشى على قلبه!.. هؤلاء الإرهابيون ليست لديهم قلوب.. لا تخف.. هذه مسؤوليتي. (يضع السماعة) كيف حال الوالدة؟

إسحق : بخير يا سيدي. وهي كالعادة تبعث بأصدق تمنياتها.

مائير : كم أرجو أن تكون فخورة بنا!

إسحق : إنها تمتدحك دائماً يا سيدي.

(يدخل موشي ودافيد وهما يقودان إسماعيل. مشيته أقرب إلى الجرجرة وعلى وجهه تعبير فارغ يكاد يتّصف بالعدمية. يتأهّب موشي لفكّ قيوده.)

مائير : (مقتربا) لا تفكّ قيوده.

دافيد : (هامساً) ما زال ضعيفاً. لن يتحمّل التيار والمغطس معاً.

مائير : لا شكّ أنهم دلّلوك في المستشفى. انظروا. ألا تبدو الصحّة على وجهه! أعتقد أنه صار عاقلاً. لم نكن نريد أن نصل إلى هذا الحد. أخبرتك أن العناد حماقة، ولكنك لم تصغ إليّ. على كلٍّ ما فات مات. عرفت بعض فنوننا، ويمكنك أن تجنّب نفسك معرفة الباقي.. هيا.. برهن أنك صرت أعقل (إسماعيل صامت) لا تخدع نفسك.. ولا تضاعف حماقتك. هل ستتكلم أم لا؟..

إسماعيل : أتعرف أيها السيد ما هو الموضوع الذي يكدّ عقول الفلسطينيين؟

مائير : من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد فلسطينيون.

إسماعيل : ومع هذا فإن الفلسطينيين يشحذون خيالهم كي يتصوّروا دولة كريمة تتّسع لي ولك. دولة حقوقنا فيها متساوية، وحرياتنا مكفولة. إنهم يحلمون بأنك ذات يوم ستهدم هذا المخفر الحضاري، وستقبل بالحقوق التي توفّرها المواطنية لا القوة. وسنعمل معاً، أنا وأنت، كي تزدهر قابلياتنا الإنسانية. فتصور أيها السيد أيَّ أوهام نغذّي..

مائير : وفيمَ تهمني هذه الحكايات السقيمة؟ ما يشحذ خيالكم هو الإرهاب، وأريد أن أعرف دورك فيه.

إسماعيل : هل ستكون هناك فرصة كي أخبرهم أننا نطارد السراب؟ ستكون ثمة حروب تتلوها حروب حتى يحسم الصراع.

مائير : الصراع محسوم أيها الأبله.

إسماعيل : لا.. لم يحسم بعد أيها السيد.

مائير : إذن خذوه وبرهنوا له أن الصراع محسوم. هيا يا إسحق. أريدك أن تقود العملية. ولا تخفف ضغطك حتى يعترف.

(موشي ودافيد يدفعان إسماعيل إلى الغرفة الداخلية. يتبعهم إسحق ومعه مائير.. المكتب فارغ، وثمة بقعة ضوء تكشف الدكتور منوحين.)

الدكتور : يداوون كِسَرَ بنت شعبي قائلين سلام سلام.. ولا سلام. ويلٌ لي على انسحاقي. إن ضربتي لا شفاء منها.. وعلمت أن الصراخ ظل ينبعث من تلك الغرفة

حتى انقضى الليل، وانبثق الفجر متعثراً خجلان. فجأة ساد الصمت، وانفتح الباب..

(تنير الإضاءة في المكتب. من الغرفة الداخلية يأتي مائير مكفهراً.. **يتبعه موشي ودافيد اللذان يجرّان إسحق. يرفع مائير سماعة الهاتف.)**

مائير : رشّ عليه قليلاً من الماء يا موشي..

دافيد : إسحق.. إسحق.

موشي : **(وهو يرشّ الماء)** انهض يا دلوعة ماما.

مائير : لا أريد تعليقات.

موشي : اصفرَّ وانهار مثل الأوانس.

مائير : قلت لا أريد تعليقات، عندما أضع ثقتي في شخص فأنا أعرف عملي. أتفهم.

موشي : حاضر يا سيدي.

مائير : **(في الهاتف)** دكتور.. اصعد فوراً. نعم. نعم المعتقل. توقّف نبضه. اصعد ولا تماحكني **(يضع السماعة)**.

(يستفيق إسحق، وقد بدا عليه الاصفرار والإرهاق.)

إسحق : ماذا جرى؟

مائير : **(لدافيد وموشي)** اذهبا ورتبا الأمر مع الطبيب **(يخرجان)** وأنت ماذا دهاك؟ لقد أخجلتني.

إسحق : ولكنه مات فعلاً.

مائير : نعم.. لقد مات فعلاً. والميت فيهم أفضل من الحيّ. ماذا جرى لك؟ أني أكاد أنكرك. أهذا من ربّيت ودرّبت.. قائد الحفلة يصفرّ ويُغمى عليه كالنساء. شيءٌ مخزٍ.

إسحق : اعذرني . . . إني متعب . أعتقد أني مريض .

مائير : سأعطيك إجازة للراحة . ولكن احذر . عليك أن تكون بكامل لياقتك حين تعود .

إسحق : حاضر .

مائير : بلّغ تحياتي للأم .

(اطفاء تدريجي)

سفر الأحزان اليومية

المقطع الرابع

(إضاءة على الفارعة وهي تترنح . . إنها جريحة . صياح وإطلاق رصاص . بوق سيارة إسعاف تقترب من بعيد .)

الفارعة : رصاص . . لا شك أنه رصاص . لماذا لا يركض هذا الولد؟ . اركض . ساقاي رخوتان . كل شيء بدأ من الجنازة . الله أكبر . . عاد إسماعيل في تابوت مسمًّر . لم يسمحوا لنا أن نرفع الغطاء وأن نرى التعبير الأخير على وجهه . رصاص . . لا شك أنه رصاص . جنود مقنّعون ومدجّجون بالسلاح . وسط الدموع كبًّرنا وهتفنا . كانت الجنازة مهيبة . ولم يضطرب الموكب حتى واريناه التراب . ريقي جافّ . . إني عطشانة . أرى ماء ولكن كيف أصل إليه؟ عاد إسماعيل في تابوت مسمّر، فانفجر الغضب المحتقن في الصدور . اتّسعت المظاهرة، وبدأت الصدامات . ساقاي ألين من القطن وأنا عطشانة . في يوم واحد كبر الأطفال سنوات . . حملوا غضبهم ونزلوا إلى الشوارع . الجنود مقنًّعون ومدجّجون بالسلاح . رصاص، وغيمة سوداء . عاد ابني الذي لم ألده في تابوت . (تتداعى ببطء) مات زوجي الأول مسلولاً ،

وكانت مهنتي النواح في المآتم. ريقي جافّ. زوجي الثاني أنساني الأول، ومنعني من النواح. سافر إلى لبنان، وفي المظلّة مات. عاد إسماعيل في تابوت.. رصاص. ثلاثة من أولادي تفرقوا خارج البلاد والرابع هناك.. دلال سافرت. حملت عبارتها وسافرت. أريد جرعة ماء. هل تستطيع دلال أن تقاوم فصاحة الموظّفين وتجّار الكفاح؟ تجار.. غيمة ثقيلة وخانقة... رصاص.. وتابوت. عتم.. أريد ماء. رنين.. رصاص ورنين.. إمّا نحن.. وإمّا..

(تغيب عن الوعي، ويعلو بوق سيارة الإسعاف بشكل مصمّ.)

سفر النبوءات

المقطع الخامس

(إضاءة على غرفة في بيت جدعون. يظهر جدعون نصف عارٍ، وراحيل تتمرغ على الأرض مشعّثة الهيئة، وممزقة الملابس.. يظهر عري جسدها في أكثر من موضع.)

راحيل : يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي.. كيف أمكن أن تفعل ذلك؟

جدعون : آسف من أجل الثياب، يمكن أن نرتّب الأمر.

راحيل : سافل.. أهذا ما تأسف من أجله.. وماذا عني أنا ؟

جدعون : إذا لم تكتفي يمكن أن نكرّرها.

راحيل : كيف تستطيع أن تكون منحطاً وحقيراً إلى هذا الحد ؟

جدعون : إذا واصلت شتائمك فلن أستطيع ضبط نفسي. إنك شهيّة حين تغضبين (يداعبها) وشهيّة حين تقاومين.

راحيل : لا تلمسني. يا إلهي.. كيف سوّلت لك نفسك؟

جدعون : أرجوك لا تلعبي معي لعبة البراءة. كنت تعرفين جيداً ما أريده منك.

راحيل : وهل كنت أعرف أنك ستناله بهذه الطريقة ؟

جدعون : هذه الطريقة أو تلك.. ما الفرق؟.. أعترف أني أفضل الخشونة في الحبّ.

راحيل : خشونة ! ولكنك اعتديت علي.

جدعون : لست من هؤلاء الرجال الذين يذوبون كقوالب الزبدة. نديك في البيت قالب زبدة، وهذا يكفي.

راحيل : لا يهمني ما أنت بين الرجال، ولا أدري إن كنت تحسب منهم لقد هتكتني.

جدعون : لا تنسي أنك جئت بمحض اختيارك.

راحيل : جئت لأنك وعدتني بالصداقة، ولأني بحاجة إلى معونة صديق..

جدعون : كان ذلك أسلوباً في التودّد إليك.

راحيل : أوقل أسلوباً لاستدراجي، وخداعي.. يا إلهي.. ومن تستدرج؟ إني زوجة صديقك.

جدعون : ومن قال إن زوجك صديقي؟ ليس لدي أصدقاء. القوة هي صديقي الوحيد. أنا من أجيال الصابرا يا راحيل. من هؤلاء الذين يتعلمون أن الرجل الفعلي لا يحتاج إلى أصدقاء، وأن عليه ألا يثق بأحد.

راحيل : وأغانيك عن الرشد المسلوب، والمشاعر التي لا يترجمها لسان!

جدعون : الحبّ بالنسبة لي هو الرغبة. وكانت رغبتي عارية.

راحيل : يا إلهي.. كيف ورّطتني الأكاذيب! وإلى أيّ حضيض هويت!

جدعون : إسمعي يا حبّوبة. لم تتورّطي، ولم تنخدعي.. كنت تعرفين بوضوح إلى أين أنت قادمة. ربما لم يعجبك

الأسلوب.. ولكن بالنسبة لي هذا هو الحب.. إنه عنف وسيطرة.

راحيل : لماذا لا تقولها..؟ إنه الاغتصاب.

جدعون : حين كنا صغاراً علمونا أن نحذر الشفقة والحنان، وأن ننتزع ما نريده انتزاعاً. نعم الاغتصاب. وكلما ازددتُ ضراوة، ازداد تقدير بابا لي.

راحيل : بابا ؟

جدعون : أعني رئيسنا السيد مائير.

راحيل : وهل تخبر السيد مائير عن غزواتك؟

جدعون : لا داعي لإخباره، فهو يرى بنفسه. إننا نقضي أوقاتاً ممتعة في المركز.

راحيل : أتشتركان معاً في هذه الأمور ؟

جدعون : إننا نشترك جميعاً. ألم يحدثك إسحق عن الحفلات التي نقيمها ؟

راحيل : إنه لا يحدّثني عن العمل. أيشارك هو أيضاً؟

جدعون : وماذا تظنّين.؟ لكن ليست له قامتي. فيه خَوَر أنثوي. منذ أيام أغمي عليه كالنساء. لا أعتقد أن امرأة مثلك يمكن أن تكون راضية معه.

راحيل : وما نوع الحفلات التي تقيمونها؟ أهي حفلات اغتصاب؟

جدعون : اغتصاب وأشياء أخرى..

راحيل : يا إلهي.. ما معنى هذا.!

جدعون : إنه عملنا. نحن نتعامل مع مخلوقات كان يجب أن تُباد لولا الاعتبارات الدوليّة. إن أمن إسرائيل لا يُمسّ،

ولهذا فإن علينا أن نكسر عظامهم كي يبيضوا ما لـديهم من نوايا وشرور.

راحيل : وهل هذا مرهق؟

جدعون : بل إنه ممتع. الرجل الذي تـربّى على الـوحدة وصـداقة القوة لا يمكن إلا أن يستمتع به.

راحيل : وإذن.. فإن عملكم الفعلي هو التعذيب..

جدعون : إنها اللغة الوحيدة التي يفهمها الإرهابيون.

راحيل : وتستخدمون تلك الوسائل التي نقرأ عنها في الكتب؟

جدعون : عـدَّتنا أحـدث من أيّ كتاب. ولـدينا أدوات لم نجـرّبها بعد.. لكن كما يقـول بابـا.. ليس هناك مـا هو فعّـال مثل كسر الخصيتين أو مباعدة فخذي المرأة أمام زوجها.

راحيل : ويشارك إسحق في هذا كله؟..

جدعون : طبعاً. ولكن فيه رخاوة لا تخطئها العيـن. منذ فترة أتينا بـزوجة أحـد المعتقلين، وأقمنـا حفلة صـاخبـة. لكن إسحق حاول أن يتفوّق في القسوة. أمسك شفـرة وواح يشطب عانتها وثدييها.. ثم قطع حلمة نهدها الأيسر.

(يقترب منها. ومع الكلام يتنـامى هياجـه) كرزة حمـراء دامية. حملها بين إصبعيه، ثم رماهـا بنفور وهلع. كـان وجهه محتنقاً، وعيناه تبرقان في وميض يائس. الموسيقى صاخبة، والدم يسيل مـع انحناءات الجسـد وحلمة نهدهـا كـرزة حمراء ملقاة على الأرض.

راحيل : (برعب) لا تلمسني.

جدعون : شهيٌّ رعبك. شهيٌّ غضبك.. شهيَّةٌ شراستك..

راحيل : لا تلمسني. ابتعـد عني، وحـوش. إنكم وحـوش. يـا إلهي إلى أيِّ حضيض نهوي؟...

(يسيطر عليها، وتبدأ عملية اغتصاب جديدة. تتلاشى الإضاءة.)

سفر النبوءات

المقطع السادس

(غرفة الجلوس في بيت بنحاس. يجلس إسحق شارداً. الأم تقرأ في مجلة، وبحركة آلية تمدّ يدها إلى راديو ترانزيستور. تفتح الراديو. ينطلق صوت المذيع.. تعدّل الصوت.)

صوت المذيع : قصفت طائرات سلاح الجوّ الإسرائيلي قواعد للمخرّبين في جنوبي لبنان. وقد أفاد الطيّارون بأنهم أصابوا الأهداف إصابات مباشرة. أصدر الحاكم العسكري أمراً باغلاق جامعة بيرزيت على خلفيّة الاضطرابات التي شهدتها المناطق..

إسحق : (متأفّفاً) أرجوك.. أغلقي المذياع.

(الأمّ تغلق المذياع بانزعاج)

إسحق : تأخّرت راحيل.

الأم : إنها تحب التسكّع في الأسواق.

إسحق : أُماه.. حاولي ألا تكوني قاسية عليها.

الأم : خير لها أن تعود إلى عملها.

إسحق : لا تستطيع أن تترك الطفل.

الأم : الطفل مسؤوليتي. إني أفعل له كل شيء. وأريد أن أربّيه كما يجب.

إسحق : وأمّه.. ألا يحق لها أن تشارك في تربيته!

: ليست لديها الخبرة. منذ أيام سمعتها تناغيه بحكايات سخيفة.. البرقوق الذي تزوج الحلاوة. والحلاوة التي وضعت طفلاً من السكر.. وتفاهات من هذا النوع. أنا على الأقل ربّيتك. وحين أراك الآن أشعر بالزهو.

حق : لست متأكداً أن لديّ ما يبعث على الزهو.

: لا أسمح لك. إياك أن تظنّ أن التواضع فضيلة.

حق : أماه.. أودّ لو تحدّثيني عن أبي.

: ما بك يا بني؟ حالك في الفترة الأخيرة لا يعجبني.

حق : حدّثيني عن أبي.

م : دع الموتى راقدين في قبورهم.

سحق : كنت دائماً تتحاشين الحديث عنه. أحياناً يخيّل إلي أن جوزيف بنحاس لم يوجد وأنه مجرّد انطباع عابر من انطباعات الطفولة.

الأم : ذلك أفضل، لأنه ما كان يصلح قدوة لابنه.

إسحق : هل كان سيّئاً إلى هذا الحدّ؟ أذكر رجلاً دافئ النظرة يعزف على الكمان. كان المساء ملوناً، واللحن ينساب بين الألوان مثل جدول عسلي.

الأم : نعم.. الكمان. هذا ما كان يحسنه، بينما الرجال يتدرّبون على السلاح، ويخطّطون لمستقبل الدولة. كان رجلاً خائر العزيمة، مثقلاً بالمرارة.

إسحق : ولِمَ المرارة ؟

الأم : وما أدراني.! ربما لأنه وافق على المجيء معي. وربما لأنه لم يجد له مكاناً في المجتمع الذي يتأسّس.

إسحق : ألم يكن راغباً في العودة إلى أرض إسرائيل!

الأم : كان موسوساً. لم يشاطرني حماستي للصهيونية، ولكنه لم ينقذها كما كان يفعل بعض المتحذلقين والشيوعيين. ظننت أن دفعة صغيرة تكفي كي أتغلّب على موقفه المتردّد. وحين فاتحني بالزواج، اقترحت عليه أن نهاجر بعد الزواج، وأن نبني حياتنا هنا، فاستخفّته الفكرة ووافق.

إسحق : هل كنت تحبّينه؟

الأم : وأنت.. هل تمارس دور المحقّق مع أمك.!

إسحق : تكلّمي يا أماه.. أريد أن أعرف.

الأم : ربما أحببته في البداية، أو بالأحرى خُدعت به. جذبني استقلاله ومزاجه الفنّي. كان يبدو واعداً. ولكن بعد مجيئنا تبيّنت أن ذلك كله قشرة يخفي بها عدميّته.

إسحق : أذكر رجلاً يجلس على الأرض، وحوله أوراق وقصاصات ملونة. كان يصنع طائرة ورقية لها ذنب مدهش.

الأم : نعم.. كان يفتنه اللهو، وكل ما هو عقيم.

إسحق : أذكر الطائرة وفرحتي بها.

الأم : لو تركتك له لأفسدك. آه.... كم كنت خائفة عليك.!

إسحق : كيف هاجرتما؟.. وكيف عشتما هنا؟

الأم : لم نحمل معنا إلا الكمان وصندوق كتب وملابس. حين وصلنا أرض إسرائيل كنت كالمحمومة أتّقد حماسة، وانفعالاً. أما هو فكان فاتراً لا يكفّ عن التذمر. استقرّ

بنا المقام في أحد الكيبوتزات. تلك الأيام.. بدت لي الحياة إمكانية مذهلة، فانغمست فيها بفرح وشجاعة. لكن أباك ظل متباعداً، وعجز عن إتقان أيّ عمل. ثم بدأ تذمّره يتزايد حتى تحوّل إلى نوع من العداء المرير. كانت الهوّة تتسع بيننا كل يوم. وكان يعرف أنه يخسرني إلى الأبد.. وربما كان هذا أيضاً من أسباب مرارته.

إسحق : وعلام كان ينصب عداؤه؟

الأم : على كل ما نؤمن به، الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القوميّ.

إسحق : هل كان يُسِرُّ لك بأفكاره؟

الأم : بل كان يعلنها بوقاحة صاخبة. في فترة من الفترات أصابه ولع الدفاع عن العرب. كان يريد مناكدتنا. صار يجمع أقوال اليهود الموسوسين من أمثاله ويتشدّق بها أمامنا. قال فلان وقال علّان. وكنت أحمرّ خجلاً، وأتميز غيظاً. وذات يوم سمّانا وكالة للرأسمالية اليهودية والعالمية، فأمسكه مائير من ياقته، وقال له بصوت باتر.. ابلعه. فبلع لسانه وسكت. كان جباناً رغم ضوضائه.

إسحق : ألم يكن السيد مائير صديقه؟

الأم : مائير صديقه.! كان يحتقره، ويعتبره خطراً على قضيّتنا. من أجلي لم يتّخذ ضده أيّ إجراء.

إسحق : وهل مات فعلاً بالتليّف الكبدي؟

الأم : هذا ما قاله الطبيب. . كانت به علل كثيرة، لكن المرارة هي التي قتلته.

إسحق : هل مرض فترة طويلة؟

الأم : لا. . لم يطل مرضه. لازم الفراش نهاراً، وفارق في الليل. كان موته مريحاً ومناسباً.

إسحق : لمن؟. . لك وللسيد مائير!

الأم : للجميع. وأولهم أنت.

إسحق : أنا؟. .

طبعاً. كان يهيىء لك تربية عدميّة. عارض إرسالك إلى حضانة الكيبوتز، وحاول أن يحبسك في البيت كي ينقل إليك تأثيراته الضارّة. كم عانيت كي أبعدك عنه. ! وكم خفت حين بدأت تتعلّم العزف على الكمان! لولا مائير ما كنت أعرف كيف أتحمّل محنتي معه.

إسحق : أحياناً يخطر لي أن السيد مائير هو أبي الفعلي.

الأم : إسمع يا إسحق. لا تحسب أني سأتصنّع الحياء أمامك. أنت من صلب جوزيف بنحاس، ولكن كنت أودّ بكل جوارحي لو أنك من صلب مائير. وعلى كل إذا كان الأب هو الذي يربّي، ويساعد الابن على بناء شخصيته، ومستقبله، فإن مائير هو أبوك الفعليّ. لقد قاسمني مسؤوليتك، وعلّمني كيف أصوغ حياتك ومستقبلك.

إسحق : لماذا لم تتزوّجا بعد موت أبي؟

الأم : لأن ما بيننا يسمو على أي عقد أو زواج.

إسحق : هل فضلتما العلاقة الحرّة؟

الأم : ربما صار من حقك أن تعرف. لا يوجد ما يشبه علاقتنا يا إسحق. بعد فترة من إقامتنا في الكيبوتز التقيت به. كنا نحضر اجتماعاً للحركة. ونهض أمامنا شابّ ملكي في وقفته وقامته. كانت لحظة خارقة. رأيت سليل داود يهب من بين الأموات متلفّعاً بالسحر والجمال. كان مهاجراً جديداً. وحين قُدِّمت إليه، تملّكتني رعشة، وقلت في نفسي هذا بوصلتي إلى وطني ومجدي. . وسرنا معاً.

إسحق : إذن كان من النزاهة ألّا تبقي مع أبي؟

الأم : تلك كانت رغبتي، ولكن مائير كانت لديه فكرته الخاصّة عن النقاء.

إسحق : وما هذه الفكرة؟

الأم : آه. . كيف أشرح لك. الأفضل لو تركنا هذه الذكريات.

إسحق : لا. . لا نستطيع أن نتركها قبل أن أعرف.

الأم : إنك تقلقني هذه الأيام.

إسحق : وضّحي لي يا أماه. . . أيّ نوع من العلاقة كانت تربطك بمائير؟

الأم : أحبّني كما أحب الربّ إسرائيل. وأحببته كما يحب اليهوديّ المسيح. كان حبّنا صياماً ومكابدة.

إسحق : لم أفهم شيئاً.

الأم : كان مائير يفكر أن حلمنا لا يحقّقه إلا جيل مفعم بالوجد

والطهارة. كان يقول ينبغي أن نكون روحاً شفّافة كالفجر، صلبة كالنصل كي تكتمل المعجزة.

إسحق : أية معجزة؟

الأم : إسرائيل ومجدها. نحن جيل تعهّد أن يصحّح تاريخاً طويلاً من الخطأ والآلام. وعلينا أن نكتشف في أعماقنا ينابيع قوة بكر. لأن المعجزة لا تبنيها إلا قوة بلا خطيئة. هكذا كان يتكلّم.. وكنت أحسّ أني كائن أثيريٌّ يطفو فوق حلم.

إسحق : هل كان يؤمن بذلك فعلاً؟

الأم : كما يؤمن بقضيته.

إسحق : وأنت؟

الأم : حين كنت أصغي إليه، كنت أحسّ أني في حضرة نبيّ. نفذ إيمانه إلى أعماق روحي. فبدأت أروّض جسدي، وأتعلّم لذة المكابدة والتسامي.

إسحق : وأبي؟

الأم : هجرت فراشه إلى الأبد.

إسحق : وحافظت مع مائير على طهارة العلاقة؟..

الأم : مرة.. ولكن ما لنا وهذا الحديث..

إسحق : مرة...

الأم : مرة كدنا نضعف. أو للحقّ، أنا التي ضعفت. ويبدو أننا تورّطنا بصورة مزرية. حين انتبه، هبَّ واقفاً وقال ببرود غاضب.. أخطأت أورشليم خطأً فلحقها الطمث. ومكرِّموها ازدروها لأنهم رأوا سوأتها. آه..

تمنيت لو تنشقّ الأرض وتخفيني عن عينيه. لقد [illegible] جمالي، وفقدت حظوتي في قلبه. قال.. ما زال [illegible] أرجاس. وبعدها لم يخل بي أبداً.

إسحق : ولهذا انقطعت زياراته؟

الأم : ولكن حبّنا ظل حياً.

إسحق : حبّ عصابي وعاقر.

الأم : إنه الحبّ الذي بنى المعجزة.

إسحق : معجزة لا تفرح ولا تنجب.

الأم : إياك أن تقول ذلك. تطهّرنا، وكابدنا لكي تفرحوا أنتم وتنجبوا.

إسحق : ألا يمكن أن يكون مائير؟

الأم : أن يكون ماذا؟

إسحق : لا شيء.

الأم : اسمع يا بني. إن مائير رجل كامل، وبأمثاله تحقّقت معجزة إسرائيل. عاش كالراهب الذي نذر نفسه لقضيته. وبطولاته في الأرغون مأثورة. أنتم جيل مدلّل، لأنكم حظيتم بآباء مثل مائير. لو تعلم بأي دأب وحنوّ كان يخطّط لمستقبلك. وها أنت الآن تعيش ذلك المستقبل. عمل خطير، ورئيس كالأب. لقد نجح رهاننا، وأرجو أن ترقى السلّم الذي رفعه لك مائير بما يليق من التفاني.

إسحق : نعم... لقد خطّط لكل شيء. ولكن لم يخطر لأيّ منكما أن يسألني إذا كنت أريد هذا العمل..

والطهارة. كان يقول ينبغي أن نكون روحاً شفّافة كالفجر، صلبة كالنصل كي تكتمل المعجزة.

إسحق : أية معجزة؟

الأم : إسرائيل ومجدها. نحن جيل تعهّد أن يصحّح تاريخاً طويلاً من الخطأ والآلام. وعلينا أن نكتشف في أعماقنا ينابيع قوة بكر. لأن المعجزة لا تبنيها إلا قوة بلا خطيئة. هكذا كان يتكلّم.. وكنت أحسّ أني كائن أثيريٌّ يطفو فوق حلم.

إسحق : هل كان يؤمن بذلك فعلاً؟

الأم : كما يؤمن بقضيته.

إسحق : وأنت؟

الأم : حين كنت أصغي إليه، كنت أحسّ أني في حضرة نبيّ. نفذ إيمانه إلى أعماق روحي. فبدأت أروّض جسدي، وأتعلّم لذة المكابدة والتسامي.

إسحق : وأبي؟

الأم : هجرت فراشه إلى الأبد.

إسحق : وحافظت مع مائير على طهارة العلاقة؟..

الأم : مرة.. ولكن ما لنا وهذا الحديث..

إسحق : مرة...

الأم : مرة كدنا نضعف. أو للحقّ، أنا التي ضعفت. ويبدو أننا تورّطنا بصورة مزرية. حين انتبه، هبَّ واقفاً وقال ببرود غاضب.. أخطأت أورشليم خطأً فلحقها الطمث. ومكرّموها ازدروها لأنهم رأوا سوأتها. آه..

تمنيت لو تنشقّ الأرض وتخفيني عن عينيه. لقد انكسر جمالي، وفقدت حظوتي في قلبه. قال... ما زالت فينا أرجاس. وبعدها لم يخل بي أبداً.

إسحق : ولهذا انقطعت زياراته؟

الأم : ولكن حبّنا ظل حياً.

إسحق : حبّ عصابي وعاقر.

الأم : إنه الحبّ الذي بنى المعجزة.

إسحق : معجزة لا تفرح ولا تنجب.

الأم : إياك أن تقول ذلك. تطهّرنا، وكابدنا لكيْ تفرحوا أنتم وتنجبوا.

إسحق : ألا يمكن أن يكون مائير؟

الأم : أن يكون ماذا؟

إسحق : لا شيء.

الأم : اسمع يا بني. إن مائير رجل كامل، وبأمثاله تحقّقت معجزة إسرائيل. عاش كالراهب الذي نذر نفسه لقضيته. وبطولاته في الأرغون مأثورة. أنتم جيل مدلّل، لأنكم حظيتم بآباء مثل مائير.. لو تعلم بأي دأب وحنوّ كان يخطّط لمستقبلك. وها أنت الآن تعيش ذلك المستقبل. عمل خطير، ورئيس كالأب. لقد نجح رهاننا، وأرجو أن ترقى السلّم الذي رفععه لك مائير بما يليق من التفاني.

إسحق : نعم... لقد خطّط لكل شيء. ولكن لم يخطر لأيّ منكما أن يسألني إذا كنت أريد هذا العمل..

الأم : وكيف لا تريده.. إنه واحد من أجلِّ الأعمال في دولتنا. إنك العين التي تحمي هذه القلعة التي بنيناها. ولا يتاح الكثيرين هذا الشرف. وهذه الرتبة.

إسحق : عملنا شاقّ يا أمّاه.

الأم : هـذه النغمة المتـذمّرة جـديدة علـي. إن إحساس الأم لا يخطيء. هناك شيء ما لا يسير. قل لي ما بك!

إسحق : إني متعب.

الأم : سأحضر لك قرصاً فوّاراً.

إسحق : لا.. لا.. التعب هنا.. في أعماقي. لم أعد متأكـداً أن ما نقوم به جليل.

الأم : من المؤكد أنه جليـل.. إن الإيمان أقـوى من الحقيقة يـا إسحق. ولا يجوز أن يتزعزع إيمانك لئلا تضيـع. أخشى أن يكـون ذلك من تـأثير زوجتـك. هـل تحـدّثها عن عملك؟

إسحق : لا.. إنها لا تعرف شيئاً.

الأم : هذا أنضل، فهي كائن هشّ (صراخ طفل) آه.. استيقظ حبيبي. إني قادمة داوودي.. إني قادمة يا ملكي.

(تهرع الأم خارجة)

إسحق : متعب ومشـوّش. أذكـر رجـلاً عـذب الـوجـه، بـارع اليدين، يتناول المعجـونة ويصنـع منها أرنبـاً، وشجرة، وكماناً.

(تعود الأم حاملة الطفل)

الأم : ملكي غـاضب.. عفوك.. عفـوك. تقلّد سيفـك علـى

فخـذك، وبجلالـة اقتحـم. نعم [illegible] الطفل لإسحق) لاعبه قليلاً ريثما أحضر [illegible]

(تخرج الأم. إسحق يناغي الطفل. تـدخل راحيل [illegible] وملتفّة بمعطفها).

إسحق : أين كنت؟.. كدت أقلق عليك.

(تنتزع الطفل منه، وتنزوي به في ركن قصيّ. تدخل الأم)

الأم : (مقـتربة من راحيـل بخـطوات حـاسمـة) يجب أن أغـير لـه، وأرضعه (تحاول راحيل التشبّث بالولد. الأم تحـاول انتزاعه من بين يديها) إنه مبلّل وجـائع. تعـال يا ملكي تعـال (فجأة تتخلّى راحيل عن الـطفل بحـركة يـائسـة.. تحمله الأم، وتمضي به) شـعوب تحتك يسقطون. اسمعـي يا بنت وانظري. انسي شعبك وبيت أبيك.

إسحق : (يقترب من راحيل) لماذا تأخّرت؟

راحيل : يا إلهي.. إلى أيِّ حضيض نهوي.!

إسحق : (يلمسها) ماذا حدث؟

راحيل : (مرتاعة) لا.. لا تلمسني.

إسحق : ماذا هناك؟ ولم هذا الهلع كلّه؟

راحيل : لا تلمسني.

إسحق : هل تتقززين مني؟ كنت أعلم أنـك لن تتحمّلي الأمـر. لا ألومك. شابّة بمثل حرارتك لا يمكن أن يرضيها زوج كالأخ.

راحيل : يا إلهي.. إلى أيِّ حضيض نهوي.!

إسحق : أعـرف أنك تقـاسين. وأن حيـاتنا تتـدهـور. ولكن.. كنت آمـل ألا تتخلّي عني. لـو تعلمين كم أنـا بحـاجة

إليك.. لا.. لا أحاول أن أستدرّ شفقتك، فالشفقة تزيد وضعنا زيفاً. إني وحيد.. وكم هو فظيع أن يكون الرجل وحيداً مع عجزه. الا تقولين شيئاً؟

راحيل : يا إلّهي، إلى أيِّ حضيض نهوي.!

إسحق : إذا كان هناك رجل آخر، فإني أستطيع فهم ذلك. هناك ثمن يجب أن يدفع (مستدركاً يحاور نفسه) ولكن ما مبرّر أن يكون هناك ثمن...! ما الخطأ.! إننا نقوم بواجبنا. ألم يعلّموني أن أكون حادّاً كالموسى وحيداً وقاسياً كالخوف؟ ألا نعرف أن كل شيء سيتقوّض إذا تركنا العطف يتسرّب إلى قلوبنا.. إذن لماذا الثمن.! من أجل بعض المخرّبين العرب.! أليس العربي الطيِّب هو العربي الميّت.! فعلام الندم إذن.!

راحيل : يا ألّهي.. إلى أيِّ حضيض نهوي.!!

إسحق : حقاً.. لقد هوينا. كم كنا سعداء قبل ذلك.. أتذكرين أوقاتنا الجميلة.. ذلك المساء، حين اشتعلت الرغبة في جسدينا ونحن في الحديقة. وما فعلناه في السينما. و.. كنّا سعداء فعلاً. والآن.. أيّ خراب.! كان مائير يريد أمي بلا طمث. أتتصوّرين.. تحابّا سنوات ولم يحدث بينهما شيء. هي قالت لي. والجميع ينظرون إليه كما ينظرون إلى الرجل الإلّه. أشمّ رائحة كذب وعقم وخواء. أعرف أني أفقد تقديرك لي. ولكن يجب أن أبوح بما يجيش في داخلي. إني في نفق لا يبدو له مخرج. عملنا كريه يا راحيل. هو ضروريّ، إلا أنه

كريه. تعبت، ولم أعد أحتمل. إني طبيعة هشّة. نعم. أقولها لك بصراحة. إني ابن أبي. منذ لحظات كانت تقول أمي إن موت أبي كان مناسباً ومريحاً. هو الآخر كان طبيعة هشّة. لا يجوز أن نعطف على أعدائنا. هذا أدركه. ومع ذلك فإن تغذية الكراهية تستنفد القوى كتغذية الحب. لا أدري عما أتكلم. إن ذهني مشوّش يا راحيل. ولكن يجب أن أتكلم، حتى ولو ازداد نفورك مني. إنك لا تعرفين الأشياء الفظيعة التي نفعلها كي نحافظ على أسطورتنا. أسعفيني بكلمة.

راحيل : أريد أن أتقيّأ. يا إلّهي.. إلى أيِّ حضيض نهوي.!

إسحق : هل بلغ النفور هذا الحدّ.! ذهبت إلى الدكتور منوحين. لقد شخّص لي مرضي. إنه نوع من عقاب النفس. إنه تعبير جسديّ عن ندم خفيّ. طبعاً لا تستطيعين أن تفهمي ذلك. فأنت كالجميع تعتقدين أن كل ما يحقّق نجاحنا هو نظيف ومشروع. وإذن فعلامَ الندم.! كان علينا أن نقوم بعمل رهيب يا راحيل. هناك مخرِّب عنيد لا يريد أن يعترف. وطلب مائير أن نضغط عليه بطريقة مفزعة جئنا بزوجته، و.. حطّمنا رجولته. إنه الآن في داخلي يعاقبني ويعوّق رجولتي.. أو هناك إنسان في داخلي يتولى عقابي.. إنسان آخر..

راحيل : (تصاب بالفواق وكأنها ستتقيأ. ثم تهدأ) يا إلّهي.. إلى أيِّ حضيض نهوي.!

إسحق : لم يكن حشرة. ولم يكن قمامة نرميها في المزبلة. كان

رجلاً له عينان مروّعتان، ووجه تتكلّم ملامحه وتصر...
كان إنساناً.. وقبل أيام مات بين يديّ. كابرت أمام
الطبيب. ولكن ما الفائدة! لم تقنعني كل التبريرات...
تهدّئني دروس الكراهية التي حفظناها. تستطيع
كاسرائيلية أن تحتقريني ولكن أقول لك دون مواربة. إن
هذا فظيع، وإني أتقزّز من نفسي. لا أحتمل هذا
العمل. ولا أريده. ساعديني يا راحيل. أريد أن أخرج
من هذا النفق المظلم. ربما لم تفت الفرصة.. آه..
ليتنا نبتعد.. نبتعد ومتاعنا طفل وحب وكمان.

الأم : (داخلة) لماذا تحطم نفسك يا بني؟

إسحق : أمي.. نعم... تعالي أنت أيضاً. هل سمعت اعترافاتي كلّها؟

الأم : سمعت ما سمعت. أسألك.. لماذا تحطّم نفسك؟

إسحق : بل أحاول لملمة حطامي يا أماه. إننا نتشوه ونحن نشوّههم.

الأم : لن تزيدهم تشويهاً. وما تفعلونه أقل مما أوصانا به الربّ.

إسحق : ربما لم يتخيّل الرب أننا سنطوّر فنون التعذيب إلى هذا الحدّ.

الأم : لا تجدِّف. أوصانا الرب ألاّ نعفو عنهم، وأن نقتلهم رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً.

إسحق : كان عليه أن يخلقنا على نحو آخر، إذا كانت تلك وصيّته.

الأم : العيب فيك وليس في خلقه. ومن المخيّب أن أكتشف أن ما بذلته خلال هذه السنوات لم يصلح ذلك العيب الوراثي. تلك جرثومة أبيك، ولن نسمح لها بالتكاثر والنموّ. لحظة الضعف هذه يجب أن تمرّ.

إسحق : لن تمرّ. فالشكوك تنخر روحي.

الأم : إلامَ ترمي بحقّ الرب؟

إسحق : لست مقتنعاً أن ما نفعله عادل.

الأم : ما دام ضرورياً لمنعة إسرائيل ومجدها فهو عادل.

راحيل : وهل ضروري لمنعة إسرائيل ومجدها أن أُغتصَب أنا أيضاً!

إسحق : ماذا تقولين؟

الأم : (باحتقار) وما هذه القصّة أيضاً؟

راحيل : لقد اغتصبني زميلك الفعّال جدعون.

إسحق : أعيدي ما قلت.

راحيل : لقد اغتصبني جدعون.

إسحق : يا إلهي.. حقاً إلى أيّ حضيض نهوي.!

الأم : الزنى شيء، والاغتصاب شيء آخر.

راحيل : اغتصبني كما يغتصبون العربيات أثناء عملهم المجيد. حدّثها عن حفلاتكم يا إسحق. حدّثها عن حلمة النهد المبتورة.

إسحق : يا إلهي... إلى أيِّ حضيض نهوي.!

الأم : زانية...

راحيل : أنت يا امرأة الحليب الفاسد. كنت أحاول مساعدة

ابنك، وهذا ما نالني **(تفتح معطفها، فتظهر ثيابها الممزقة وخدوش في جسدها)** انظري جسدي وثيابي يا مرضعة الذئاب. ذئاب ضارية في بريّة هجرها الله تقزّزاً.. تقزّزاً.

(تضع يدها على فمها لتمنع اندلاق القيء، وتهرع خارجة.)

إسحق : يا إلهي إلى أيّ حضيض نهوي.!

الأم : كنت أعلم أن هذه المومس ليست منا **(تداعب شعره)** أصغِ إليّ يا بني. لن نتركها تهدم كل ما بنيناه.. تعالَ.. تعالَ إلى حضن أمك **(إسحق يقاوم)** منذ زمن طويل لم نقرأ سيرة الميلاد والبطولة. استرخِ يا بني.. دع أمك تهدهدك، وتحكي لك ما تحتاج إلى سماعه.

(إظلام تدريجي.)

سفر الأحزان اليومية

المقطع الخامس

(الفارعة مضمّدة على سرير مستشفى. يجلس ابنها محمد على طرف السرير.)

الفارعة : كنت كمن ينهض من الموت.

محمد : (مازحاً) وكيف وجدت الموت؟

الفارعة : الموت حقّ. ولكنه موحش ومخيف. هل طالت غيبوبتي؟

محمد : قرأنا الفاتحة مرات. ولكننا اجتزنا الخطر، وقرّرنا أن نحيا.

الفارعة : يموت الغالي ويحيا الرخيص.

محمد : أنت أغلى مما تتصوّرين. لو تعرفين كم شاباً تبرع لك بالدم.!

الفارعة : هل أعطوني من دمهم؟

محمد : كنت بحاجة إلى دم كثير، ولم يقبلوا في المستشفى أن يأخذوا مني المزيد. فتدافع الشباب للتبرّع. الآن.. كلّ الدم الذي يتدفق في عروقك شاب. وعندما تنهضين بالسلامة ستعودين صبيّة.

الفارعة : أنتم أحوج إلى دمائكم من عجوز مثلي.

محمد : الدم يعوَّض، أما الفارعة فلا تعوَّض.

الفارعة : حماكم الله، ورعى شبابكم. هل كان هناك كثير من الضحايا؟

محمد : دعيك الآن من هذا. عليك أن تهتمّي بنفسك كي تشفي بسرعة.

الفارعة : إني بخير.. كم كان عدد الضحايا؟

محمد : ما حان الوقت كي نحصي ضحايانا؟

الفارعة : ماذا تعني؟... أخبرني.. ماذا يجري؟

محمد : إنها تشتعل وتمتدّ.

الفارعة : هل تمتدّ فعلاً؟..

محمد : نعم.. إنها تمتدّ في الضفّة والقطاع.

الفارعة : هذا أفضل خبر يسمعه العائد من الموت. وأنت؟

محمد : ماذا تظنّين.. مهما فعلت فأنا ابن أبي وأمي. رميت البطاقة، وملأت مكانك الشاغر في الصدامات.

الفارعة : الآن... اكتملت فرحة أمك.

محمد : ولكن بعد اليوم، عليك أن تركني في البيت. أصبحت كبيرة على المظاهرات ورمي الحجارة.

الفارعة : وأنت... ألست صغيراً على توجيه التعليمات إلى أمك.. لم تعطوني دمكم كي أركن في البيت. ولكن قصّ عليّ أخباركم. أريد أن أعرف كل شيء.

محمد : **(يخرج راديو ترانزستور من علبة، ويقدّمه لها)** حملت لك هذه الهدية كي تعرفي ما يجري.

الفارعة : واشتريت لي راديو..

محمد : إنها هدية منا جميعاً. ولكن لا تنسي أن الطبيب حذّر من الانفعال والجهد..

الفارعة : لا تخف عليّ.

محمد : يجب أن أمضي.. هل تريدين شيئاً؟

الفارعة : سلامتك وسلامة رفاقك. قبّلهم وبلّغهم سلامي.

(يقبّلها ويخرج.. الفارعة تفتح الراديو.. ينبعث نشيد وطني من إحدى المحطات العربية.)

الفارعة : لو أنهم يرسلون بدل الأناشيد بعض الدم والطحين. حقاً.. هذا ما نحتاجه، بعض الدم والطحين.

(تتلاشى الإضاءة.)

سفر النبوءات

المقطع السابع

(ضوء ينير ركناً يظهر فيه إسحق وراحيل.)

إسحق : هل خسرنا كل شيء؟

(تهزّ راحيل كتفيها بحركة عاجزة ومتعبة)

إسحق : هل خسرنا كل شيء يا راحيل؟

راحيل : ربما..

إسحق : هل نستسلم بهذه السهولة؟

راحيل : لم يبق ما نقاوم من أجله.

إسحق : إني بحاجة إليك. لو وقفت إلى جانبي فقد نجد مخرجاً من هذا النفق.

راحيل : لا أستطيع.

إسحق : لماذا؟ هل انطفأ حبّك تماماً؟

راحيل : إني مكسورة، وأحتاج من يجبر كسوري. لا.. لا أستطيع مساعدتك.

إسحق : لا تظنّي أني سأترك جدعون يفلت بفعلته. لا أريد أن أكون أخرق، ولكني سأصفّي المسألة.

راحيل : لا يهمّني الأمر. معدتي تجيش. لا أريد أن أسمع شيئاً عن هذا كله.

إسحق : هل اتخذت قراراً ما؟

راحيل : ربما...

إسحق : ما هو؟

راحيل : قد ألبي دعوة عمتي. كلانا الآن محتاج للآخر.

إسحق : ونحن.. أنا والصغير محتاجان لك أيضاً.

راحيل : ليس لديّ ما أقدّمه لكما.

إسحق : أتتخلّين عن الصغير أيضاً؟

راحيل : ملعونة تلك الساعة التي أنجبته فيها. ألم تنتزعه أمك مني.!

إسحق : إني أفهم ما تعانين. أعرف أن الأمور تعاقبت بصورة مريعة. أمي ومرضي وجدعون... ولكن أعطينا فرصة. كنا زوجين متحابين وأنجبنا ثمرة جميلة. دعينا نعالج أمورنا بتروٍّ.

راحيل : سأجنّ لو بقيت هنا. هذا الغثيان.. وهذه الكوابيس.. إني أتدلّى في فراغ مرعب.

إسحق : سأترك العمل، وأنتقل إلى وظيفة مدنيّة في الخارج.

راحيل : هذا شأنك.

إسحق : يمكن أن نسافر معاً. أن ننقذ أنفسنا ونبتعد.

راحيل : ستكون أمامنا فترة طويلة حتى تلتئم الجراح، وقد لا تلتئم.

إسحق : دعينا نجرّب.

راحيل : جرّب إذا شئت ولكني لن أبقى هنا.

(تنقبض ملامحها. إنها تغالب الغثيان.)

إسحق : هل صمّمتِ؟

راحيل : نعم . . .

إسحق : أمهليني قليلاً.

راحيل : لا أحتمل هذا البيت. لا أحتمل رؤيتك. لا أحتمل أمك، لا أحتمل جسدي، وهذا الغثيان. . لا. . ينبغي أن أهرب، وإلا نفقت كما تنفق الكلاب.

(تضع يدها على فمها، وتهرع إلى الداخل.)

إسحق : ماذا ينتظر المسيح حتى يظهر؟ لا فائدة من المماطلة.

(يخرج إسحق. . تبدأ الإضاءة بالخفوت تدريجياً. . تدخل الأم وهي تدفع مهد الطفل أمامها.)

الأم : وأقبل جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون. فقطع معهم الملك داود عهداً في حبرون أمام الربّ، ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل. وأخذ داود حصن صهيون وأقام في الحصن، وسمّاه مدينة داود. وكان داود لا يزال يتعاظم والربّ إله الجنود معه.

سفر النبوءات

المقطع الثامن

(ضوء على الدكتور منوحين. . وأثناء كلامه يعلو الضوء في المكتب ويظهر إسحق وهو يتسلّق السلم، ويدخل إلى المكتب.)

الدكتور : لقد انكسر قلبي في داخلي. ورجفت كل عظامي، وصرت كإنسان سكران وكرجل غلبته الخمر لأن الأرض امتلأت بالفجار، وناحت من أجل اللعن ويبست مراتع البرّية، وصارت مساعيهم غير مستقيمة، وجبروتهم شريراً. لم يكن أمام شخوص هذه القصّة أي سبيل للتراجع، وكذلك الأمر بالنسبة لي. عرفت كل شيء، ولا أستطيع أن أخفيه.

(يخرج الدكتور. . ويدخل إسحق إلى مكتب مائير.)

مائير : أرجو أن تكون قد استعدت لياقتك. على كلٍّ جئت في وقتك. قمنا باعتقالات جديدة، والمركز يغصّ بالزبائن.

إسحق : سيدي. . لقد اضطربت حياتي فجأة، وإني بحاجة إلى بعض التفهّم والعطف.

مائير : وما هذه القصّة الجديدة. . . هل الوالدة بخير؟

إسحق : الوالدة بخير، ولكن زوجتي. . وأنا. . لن أصدّع رأسك بالمتاعب جئت ألتمس منك معروفاً.

مائير : ما هو؟

إسحق : لولا اضطراب حياتي ما فكرت في طلب كهذا. يمكن أن تساعدني في الانتقال إلى وظيفة في الخـ... لا يهمني البلد. المهم أن أسافر فترة من الزمن. أكون نافعاً.

مائير : هذه نغمة مفاجئة. المكان الوحيد الذي يمكن أن تكـ... نافعاً فيه هو هنا في إسرائيل. وفي هذا المركز بالذات.

إسحق : إن زوجتي تعاني من اضطرابات عصبية حادّة. وربما...

مائير : (يقاطعه) أنت تعرف أننا لا نحبّ الذين يقصّو... حكايات. لن تخبرني عن بيتك ما لا أعرفه. أتظن أ... لا أفهم ماذا يجري لك؟ فجأة بدأت ترى هؤلاء العرب بشراً. ولكن تذكّر ماذا يفعلون والخطر الذي يمثّلونه. لـ... تمكّنوا منا لأبادونا. هل تشكّ في ذلك؟

إسحق : طبعاً لا...

مائير : كيف تشفق عليهم إذن.!

إسحق : أنا أشفق عليهم.!

مائير : أعرف كيف أميّز جرثومة الإشفاق. الإغماء الذي أصابك، وهذا الطلب الآن. أقول لك.. احذر يا بني. إن الشفقة في عملنا خطيرة كالخيانة.

إسحق : في لهجتك رنّة تهديد يا سيدي.

مائير : تعرف أني أحيطك برعاية خاصة. إنك ربيبي. ولا أريد أن أراك تضعف. هنا.. نحن صمام الأمان للدولة

اليهودية، ولذا ينبغي أن نكون مادّة فولاذية لا تلين ولا تنكسر. زملاؤك ليسوا أفضل منك، فلا تترك الجو يخلو لهم. أثبتْ من أنت. أتريد أن تخيّب أملك.. (يرنّ جرس الهاتف) وتخيّبني معها (يرفع السماعة، ويتكلم في الهاتف) آلو.. نعم، تجدّدت أعمال الشغب.. قلت لكم لا حلّ إلا بالاستيطان المكثّف والترويع.. علينا أن نضغط، ونضغط حتى نجبرهم على الرحيل.. الأمم المتحدة زريبة لا تصلح حتى للخراء.. ستنتهي التحقيقات خلال أيام، ونقدّم لكم كل المعلومات.. لا.. اطمئن.. طيّب.. مع السلامة (يضع السماعة) هل سمعت؟ القتلة يواصلون التخريب، وأنت تأتيني بهذه القصص التي تبعث على النوم. هيّا.. خذ هذه الملفّات الثلاثة، وابدأ العمل.

إسحق : أخشى أني لا أستطيع الآن.

مائير : هل تعي ما تقول... هذا تمرّد... هذا عصيان.

إسحق : لأني ربيبك أرجوك أن تساعدني. بيتي ينهار. ومن حقّي أن أحاول إنقاذه. إن السفر خشبة الخلاص لي ولزوجتي.

مائير : حتامَ أغفر لهذه الجماعة المتذمّرة عليّ؟ طلب غير معقول، ولو شاع أمره لثار حولك لغط وشكوك.

إسحق : لا يهمّني ما يثور حولي. أريد أن أحمي أسرتي.

مائير : أسرتنا الفعلية هي الدولة لا الزوجة. اسمع يا إسحق. أنت تمرّ في لحظة ضعف لا يبرأ منها إنسان. ولا تحسب

أن الدكتور المعادي هو الذي سيساعدك على عبور اللحظة.

إسحق : وتعرف هذا أيضاً؟

مائير : نعم.. وأعرف أنك تثير ضوضاء كبيرة من أجل عضوك التناسلي.

إسحق : إنك تنبش حياتي الخاصّة. إنك تراقبني كأيّ مشبوه..

مائير : ليس هناك حياة خاصة لمن يعمل معنا. إننا نراقبك لكي نحميك من العثرات.

إسحق : وكرامتي.! أية كرامة بقيت لي.!

مائير : الكرامة الفعلية هي أن تكون فولاذاً لا تلويه العواطف.

إسحق : أي أن أعذّب وأقتل كما أتنفّس؟

مائير : إنّك لا تعذّب ولا تقتل، بل تحمي وطنك من القتلة.

إسحق : ولكننا نقتلهم.

مائير : قتل القتلة عدالة وليس قتلاً.

إسحق : ألا نلعب بالتسميات كي تلائمنا؟ نسمّيهم قتلة لكي نسمّي التعذيب والقتل عدالة..

مائير : هل وصلت هذا الحدّ من الانحراف؟

إسحق : لا أدري أين وصلت. كل ما أعرف هو أننا نغوص في الوحل.

مائير : أنت وحدك مَنْ يغوص في الوحل. لقد فسد إيمانك تماماً.

إسحق : ربما.. لا أدري إن كنت تفهم ذلك. اكتشفت ومن خلال جسدي أن ما نفعله ليس مقنعاً، وأن من نسميهم القتلة لهم عيون ومشاعر ويحسّون بالظلم.

مائير : ولم لا تقول إن قضيتهم عادلة؟

إسحق : لم أعد متأكداً أن الحقّ كلّه إلى جانبنا.

مائير : لا.. لا يمكن.. هذا تجديف. منذ طفولتي علّمني والدي الذي قتله الألمان وهو ينشد الهاتكفا أن اليهود يجب أن يرجعوا إلى أرض إسرائيل، وأن يعيدوا تأسيس مملكتها الكبرى. هذا هو الحقّ الواضح البسيط الذي يشبه إشراق الشمس ودورة الأيام. وكل من يعترض سبيلنا يجب أن نزيله بلا رحمة.

إسحق : وهل كان أبي عقبة تجب إزالتها بلا رحمة؟

مائير : ماذا تخرّف؟ إنك مخيّب جداً أيّها الشاب. كم تعبنا، أنا والمسكينة أمّك كي نصوغ منك رجلاً حقيقياً.!

إسحق : وهل تظنّ أن علاقة عقيمة غذاؤها الكراهية والقتل يمكن أن تصوغ رجالاً؟

مائير : صدق جدعون.. ما أنت إلا عنّين يبول على نفسه.

إسحق : وأنت.. ما أنت؟ أتظن أن القتل يصنع رجالاً. قتلت أبي، وتريد أمي بلا طمث.

مائير : توقف.

إسحق : لا.. لن أتوقف. أأنت تتحدث عن العنَّة.. أتظن أننا لا نرى عنّتك؟ تلك العنّة الفخمة.. العنَّة التاريخية التي تتلألأ خلف أقنعة الترفّع والعزلة والقسوة.

مائير : إنك تهلك نفسك.

إسحق : بل أستردّ نفسي. أنظر في عيني إن كنت تجرؤ (يدخل جدعون) أهذا المسلخ المريع هو المكان الذي هيّأته لظهور

المسيح؟! أهذه هي رسالتنا الروحية. ! (يشير إلى جدعون) أمع هؤلاء السوقيين ستبني المملكة المقدسة.. لا شك أنك تعرف ما فعله هذا الوغد.. وربما هنّأته. يا للحضيض. ! نعم.. هذا هو إنجازك الكبير. لقد أقمت مملكة للحضيض. (يمدّ كل من مائير وجدعون يده إلى مسدسه) العبا بالطرّة والنقش على حيازة هذه المأثرة. كلاكما محترف. ولكن.. لو خيّرت، فإني أفضّل أن يقتلني قاتل أبي.

(يرفع مائير مسدسه بيد ثابتة، ويطلق عدة رصاصات، يتكوم إسحق في الأرض.)

مائير : شيء محزن.

جدعون : لم يكن إلا ضراطاً.

مائير : دعني وحدي.

جدعون : حاضر.

(يخرج جدعون. يرفع مائير سماعة الهاتف.. يعلو الضوء في غرفة جلوس بيت بنحاس. يركب مائير رقماً. يرنّ الهاتف في بيت بنحاس، ترفع الأم السماعة.)

مائير : كان ثمرة فاسدة يا حبيبتي.

الأم : وقطعت الثمرة.

مائير : لم يكن هناك مجال.

الأم : أحقاً لم يكن هناك مجال. ! أصدّقك.. أصدّقك فأنت أدرى.

مائير : هل أستطيع أن أقف إلى جانبك؟

الأم : وكيف أفعل إن لم تقف إلى جانبي..

(في حركتين متوازيتين يضع كلٍ منهما سماعته.)

الأم : ولدي.. ولدي.. وغداً يسألني دافيد عن أبيه. ماذا أقصّ له؟ في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة.

(ينطفىء ضوء المكتب، ثم يتلاشى ضوء البيت ببطء متناه.)

سفر النبوءات

المقطع التاسع

(ضوء على العيادة.. يظهر الدكتور.. وراحيل التي تجهّز حقيبتها).

الدكتور : وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح. صوت العروس وصوت العروسة صوت الرحى ونور السراج.

راحيل : أذاعوا أنه مات في حادثة عرضية.

الدكتور : كان ينظف مسدسه وانطلقت رصاصة استقرّت في صدره.

راحيل : ولكننا عرفنا الحقيقة.

الدكتور : عرفنا الحقيقة ودونّاها.

راحيل : كانت الجنازة هزيلة.

الدكتور : نعم... هزيلة كانت الجنازة. بدت الأم جافّة، وليس في عينيها دموع. وكان مائير منتصب القامة، يطفو على وجهه تعبير مترفّع وبارد. أما راحيل فقد انهارت.. واضطررتُ إلى ملازمتها حتى تحسّنت حالها، ورتّبت أمور سفرها.

راحيل : هل دونتَ كل شيء؟

الدكتور : نعم.. وها هي الأوراق.

راحيل : حان الوقت.

الدكتور : هل تشعرين بغصّة من أجل الطفل؟

راحيل : وما نفع الغصّات.! هو لهم.. أخذوه، ولن أستطيع استرداده.

الدكتور : يجب ألا تيأسي أبداً من استرداده.

راحيل : ربما فيما بعد.. حين أجمع حطامي.

الدكتور : لا ينبغي أن نيأس. انشري القصّة على أوسع نطاق. لن نتواطأ معهم، ولن نسمح لهم بمصادرة المستقبل.

راحيل : أرجو ألا تخذلني قواي..

الدكتور : ستنجحين يا راحيل. يجب أن تنجحي.

راحيل : آه... هل أشكرك؟

الدكتور : لا.. لا داعي للشكر.

راحيل : أخيراً.. ربحت إنساناً وصديقاً.

الدكتور : اعتني بنفسك..

(تعانقه بانفعال وحميمية، ثم تحمل حقيبتها وتمضي..)

سفر الخاتمة

* لافتة : حوار محتمل بين الدكتور أبراهام منوحين وسعد الله ونوس (ما زالت العيادة مضاءة، والدكتور فيها. يقف الكاتب في بقعة الفارغة.)

الدكتور : أين سعد الله ونوس؟

سعد الله : ها أنذا. . .

الدكتور : بلغنا الذروة، واكتملت هذه الشخصية المسرحية التي سميتها أبراهام منوحين، فمن أين استقيت ملامحها؟

سعد الله : في البدء كانت أمنية، ولكن مواقف وشهادات بعض اليهود الشجعان أكدت لي أنها ممكنة.

الدكتور : وإذن فأنت تؤمن بأن وجود أمثالي محتمل. .

سعد الله : بل مؤكد. إذا لم يوجد أمثالك يصبح التاريخ أفقاً مظلماً.

الدكتور : لعلك تفرط في الثقة.

سعد الله : لا تبدو ثقتي مفرطة، إذا ما تذكر المرء قائمة المفكرين اليهود الذين رفضوا الصهيونية، وقاوموها.

الدكتور : ومع هذا. . هل تعتقد أن بوسعي أن أكون نزيهاً إلى هذا الحدّ؟

سعد الله : من اختار الولاء للعدالة لا للقانون لا بد أن يكون نزيهاً.

الدكتور : ولو أدّى ذلك إلى التخلّي عن أهلي وشعبي؟

سعد الله : إنك لا تتخلى عنهم، بل تحاول حمايتهم. إنك تبصر أن الدرب التي يسلكونها خطيرة، وأن الصهيونية التي يستهدون بها ورطة. هل تخلّى إرميا عن أهله وشعبه. . كان لسانه يرعد باللعنات، أما قلبه فكان يتفطّر حناناً.

الدكتور : ولكن من أصغى إلى إرميا؟

سعد الله : سيأتي وقت، وسيصغون. في الفترات الرثّة، من المهم أن تظهر شخصيات تنحّي الأكاذيب، وتطلّ على أفق تاريخيّ جديد.

الدكتور : الشجاعة وحدها لا تكفي. إنك لا تعرف القوة الروحية التي يحتاجها أمثالي كي يكونوا يهوداً ومعادين للصهيونية في وقت واحد.

سعد الله : أستطيع يا سيدي أن أتخيّل ما يحتاجه المرء من طاقة كي يتجاوز شرطه. وأنا نفسي شحذت الكثير من طاقتي كي أميّزك، وأقدم صورتك.

الدكتور : أهو شاقّ أن تقدم شخصية مثلي.؟

سعد الله : كان ينبغي أن أتخطّى الكثير من الحواجز. الريبة التاريخية التي تمنع الاعتراف بوجودك. والغوغائية السياسية التي تحول دون تمييزك، وخوف المهزوم من الخديعة، وبرزخ الضحايا والجراح، وفوق هذا مكائد الشرطة وصائدي الجواسيس. نعم. . كان يجب أن أتخطّى هذه الحواجز كلّها كي أقدم شخصية الدكتور أبراهام منوحين.

الدكتور : ولكنه شخصية مفعمة بالرفض والاحتجاج . . .

سعد الله : ويدرك أن الصهيونية ورطة للعرب واليهود على حد سواء .

الدكتور : إذا شئت .

سعد الله : ومع هذا كان عليّ أن أشحذ طاقتي كي أتخطّى الحواجز في داخلي وحولي .

الدكتور : لم أكن أعلم أن تعارفنا محفوف بكل هذه المخاطر ولكن ما دام كل منا يريد أن يتجاوز شرطه، فإني أسألك . . هل كانت النزاهة متبادلة في هذه القصّة؟

سعد الله : إلام تُلمّح؟

الدكتور : أفزعتني تلك العبارة التي ترنّ في المسرحية: «إما نحن وإما هم» .

سعد الله : هل تعتقد أن بوسعنا، أنت وأنا، أن نتعايش مع مائير وجدعون وموشي؟

الدكتور : هؤلاء . . لا . ولكن قد توحي العبارة بمعانٍ متطرّفة ومفزعة .

سعد الله : ليس للعبارة إلا هذا البعد . لا نستطيع أن نخرج من الورطة ما دام الفكر الذي يمثّله مائير وجدعون هو الذي يسود على الضفّة الأخرى .

الدكتور : طيّب . . وماذا عن السجون؟ ركزت على ما يحدث في السجون هنا، وتجاهلت ما يحدث في السجون العربية . .

سعد الله : اسمع . . تردّدت طويلاً قبل أن أكتب هذا العمل، وكان سبب تردّدي هو هذا الشعور المرّ بأن المسرحية قد تبدو ضرباً من المراوغة . نعم يا سيدي . . يجب أن تكون النزاهة متبادلة، ويجب أن أعترف أن السجون على ضفّتنا ليست أكثر رأفة، ولا أقلّ وحشية . ولكن هل تظن أن هذه الأنظمة وسجونها تمثّلنا، أو تشغلها قضية صراعنا مع إسرائيل؟ لا . . . يا سيدي . إن مشكلتنا مزدوجة . وإن للصهيونية الآن امتدادها العضوي في النظام العربي الراهن . الذين استسلموا لإسرائيل مائير، والذين يتهيأون للاستسلام . الذين يقمعون شعوبهم ويدوسونها . الذين ينهبون ثروات هذه البلاد ويبددونها . . هؤلاء جميعاً هم بعض امتدادات الصهيونية في الجسد العربي . إن الورطة على ضفّتنا معقّدة . وإن الخروج منها يقتضي نضالاً مركباً وصعباً . نعم يا سيدي . إن النزاهة يجب أن تكون متبادلة حتى ولو كان ثمنها فادحاً . وهذه الورطة التاريخية لا يمكن تجاوزها إلا بأثمان باهظة .

(يدخل جدعون وموشي ودافيد إلى العيادة . .)

الدكتور : والآن كيف تتخيّل خاتمتي في هذه المسرحية؟

سعد الله : فأمر الملك صدقيا أن يودع إرميا في دار السجن، وأن يعطى رغيفاً من الخبز كل يوم من سوق الخبّازين إلى أن ينفد الخبز كله من المدينة . إنهم يأتون بلطف، يبتسمون، ويحشرونك في القميص، ثم يمضون بك إلى إحدى المصحّات .

(يكونون قد قيّدوا الدكتور بقميص المجانين . .)

الدكتور : وأنت . . . ماذا ينتظرك؟

سعد الله : عداوة الصهاينة الإسرائيليين والصهاينة العرب .

الدكتور : إذن . . دعنا نتبادل الإشفاق .

سعد الله : الإشفاق . . . . وربما الأمل .

(يخرجون بالدكتور . . . يخلو المسرح . . . إظلام تدريجي .)